مجلة
روايات احلام

فراشة المحبة

زهرة النسيان

مجلة روايات احلام

فراشة المحبة

زهرة النسيان

هناك رفقة دائمة بين الزهرة والشوك، وعلى الزهور أن تتحدى الأشواك حتى تخرج إلى العالم بكامل تألقها...

لكن غوين خافت عندما وجدت نفسها وحيدة في منطقة الكامارغ المعزولة، أرض الرجال القساة. وخافت أكثر عندما واجهت ميشال دوكوبيري الذي طردها من منزله قبل أن تلتقط أنفاسها حتى...

هذه لم تكن إلا البداية في العلاقة العاصفة بين الصغيرة غوين وميشال، فقد كان عليها أن تواجه عدواً آخر أشد شراسة هو صديقة ميشال دوكوبيري.

فهل يملك الحب، في هذه الظروف، فرصة لكي يزهر؟

لبنان ٢٠٠٠ ل.ل	الامارات ٦ د.	مصر ٤ ج	ليبيا
سوريا ٥٠ ل.س	قطر ٦٠٠ د.	المغرب ٧٥ د.	اليمن
الاردن ١ د.	البحرين ٦٠٠ فلس	تونس ١٠٠ د.	السودان
الكويت ٥٠٠ فلس	السعودية ٧ ر.	عمان ٦٠٠ بيسة	العراق

١ ـ مزرعة الخوف

فراشة المحبة

عندما طلبت اليغرا من غوين كرايجر الحضور إليها، طلبت منها عدم الذهاب إلى المزرعة وانتظارها في الفندق، إلاّ أن غوين تقف الآن أمام المزرعة، وجعلتها الرهبة تتمنى لو أنها سمعت نصيحة اليغرا وبقيت بعيدة.. لربما كان ساعدها ذلك في المحافظة على أعصابها..

مزرعة آل دوكوبيري، في منطقة «كامارغ» الفرنسية، أوحت لغوين بجو من العدائية، وبدأ الخوف يسري في عروق جسدها النحيل وهي تطوف بنظرها حول حدود المزرعة التي يتصاعد منها ضباب الحرارة، ولو أن غوين وجدت لوحات تقول إن الغرباء غير مرحب بهم، لما تعجبت.

كانت قد تركت سيارتها قرب مجموعة من الشجيرات، إلى جانب الطريق على مسافة قصيرة وراءها، أما لماذا فعلت هذا، وهي تشعر الآن بضعفها دون السيارة، وأن الخطر لا بد أن يداهمها، فليس لديها فكرة واضحة.. السيارة هذه، استأجرتها من السيدة ايمز، صاحبة الفندق الذي تنزل فيه وهي امرأة مغامرة تدير إضافة إلى الفندق أسطولاً صغيراً من السيارات تؤجرها للنزلاء.. وأدركت غوين أن فضول السيدة ايمز، لم يكن أكبر من فضول أي فندقي آخر بالنسبة لفتاة إنكليزية لا تفعل شيئاً سوى الجلوس في غرفتها طوال اليوم.

كانت السيدة ايمز قد ألمحت عن قصد، وهي تدخل إلى قاعة الاستقبال في الوقت المناسب لتسمع غوين تطلب سيارة:

www.liilas.com

ـ سيفيدك الخروج جداً آنسة كرايجر. فلو أنكِ جئت إلى هنا لقضاء إجازة، فلن تجدي شيئاً يسليك داخل الفندق خلال النهار على الأقل.. لو كنت مكانكِ لذهبت إلى الريف، أو إلى الساحل.. على الأقل ستغيرين الهواء.

ابتسمت غوين دون ارتياح، تعي تفرس السيدة ايمز عن كثب، ولمعان الترقب في عيني موظف الاستقبال؛ وسارعت لطمأنتهما معاً:

ـ هذا ما أنويه.. لكن لدي.. عمل آخر أقوم به أولاً.

استدارت بسرعة، تخطف المفاتيح عن الطاولة، تواقة لأن تنجو من المزيد من الأسئلة التي أحست أنها على طرف لسان السيدة ايمز.

الآن، وهي تأخذ أنفاساً عميقة لتهدىء الأفكار المتضاربة التي تخالج نفسها تقدمت غوين بضع خطوات أخرى. وبدا لها أن لا وجود لأحد، وعيناها الواسعتان تجولان بتوتر فوق الصف الطويل من المباني، التي بدت منتشرة فوق سهل مغبر لا حدود له.

لم يمضِ على وجودها هنا سوى ثلاثة أيام. لكن هذا الوقت يكفي لتعرف أن هذه أرض معزولة، أرض الجياد البيضاء وقطعان الماشية، أرض الفجر، والرعاة.. سمعت في الفندق من يدعوهم «النواطير».. أو حرس «كامارغ». أرض قاسية، مع أن غوين حتى الآن، أعجبت بالقليل الذي شاهدته منها.. لكن هناك شيء ما في جو هذه المزرعة ملأ نفسها بهاجس خطر داهم غير ملموس.

هذا المنزل أمامها لا بد أن يكون مكان سكن آل دوكويبري، المكان الذي ولدت فيه اليغرا دوكويبري، المنزل الذي طالما تكلمت عنه اليغرا بحب ظاهر في سنوات الدراسة، لكنها الآن، تتكلم عنه بكراهية وتصفه بالسجن.. سجن تصورت أن من واجب غوين المؤكد إنقاذها منه!

الرهبة والقلق اللذان أحست بهما جعلاها تعتقد أن اليغرا على حق.. إلاّ أنها لم تعد واثقة من قدرتها على تحقيق الكثير لأليغرا... ولا بد أن أليغرا أكثر من مجنونة لتتصور نفسها قادرة على ضم غريبة كلياً إلى دائرة عائلتها

وإجبارهم على القبول بها. كانت تعلم أن شقيق اليغرا الأكبر ميشال دوكويبري، رجل شرس ومعادٍ لها، حتى قبل أن يعرفها، فكيف يمكن لأليغرا أن تتوقع منه التصرف بهدوء حين يجدها هنا، أمام باب داره؟

ترددت في طمأنة نفسها: طبعاً، غلطة ميشال دوكويبري الكبيرة في موقفه هذا.. وبينما كانت عيناها ما تزالان مثبتتان على البناء الحجري المنخفض الممتد، طرأ تغيّر أساسي على مزاجها ومدّها بتصميم غير عادي.. فبسبب ذلك الرجل نفسه، وقع التباعد بين عائلتيهما، وهو، بعد كل هذه المدة، لا زال يحمّل عائلتها مسؤولية الأحداث التي قادت إلى هذا الموقف..

انتابها شعور بأن رغبتها في أن تقول له رأيها الصريح في حكمه الجائر، هو الذي أقنعها بالمجيء إلى هنا لمقابلته ولتحدي كبريائه وعجرفته. وقد تنامت هذه الرغبة في نفسها أكثر بعد أن اطلعت على الرسالة التي «تنازل» وكتبها لزوجة عمها هانا والدة كريستين، وأظهر فيها كل عدائيته وعجرفته.

ذكرى ابنة عمها كريستين أعادت إليها التفكير بالسبب المباشر لحضورها إلى هنا، وذلك بعد أن طلبت منها اليغرا أن تتولى رعاية طفل كريستين الصغير فيليب. قالت لها يومها ببرود غريب:

ـ فيليب ابن عمك، ويموت أمه كريستين، لك الحق فيه بقدر ما لنا جميعاً!

وهذا ليس صحيحاً تماماً، وتعرف اليغرا هذا.. فوالدا كريستين تبنيا غوين حين كانت في الثامنة من عمرها بعد أن قضى والداها في حادث سيارة، وكانت في الواقع ابنة شقيق هانس كرايجر، وأعلن يومها أنها ستكون رفيقة لابنته كريستين ووافقت زوجته هانا على كلامه من كل قلبها.

كانا لطيفين طيبين معها، ولطالما أملت أن ترد لهما الجميل يوماً.. وفي الواقع، كانت تنوي هذا منذ البداية.. كانت فتاة ذكية، تكافح لكي ترضي عمها وزوجته، عملت جاهدة، وأعطتهما البهجة عندما حصلت على منحة دراسية في مدرسة شهيرة للبنات.. وهناك قابلت اليغرا دوكويبري..

www.liilas.com

فتاة فرنسية، كانت أمها إنكليزية، ولديها أقرباء يعيشون في غرينوبل، ليس بعيداً عن منزل غوين.

لأليغرا شقيقين يعيشان في فرنسا، وكانت تقضي العديد من عطلاتها الطويلة معهما، وأحياناً كانت تقيم مع عائلة غوين.. وكانت تردد دائماً: «أخواي يعتبراني مصدر إزعاج.. ولا يهتمان بأمري».. مع ذلك، وبالرغم من كل احتجاجاتها، كان أخاها الأصغر، روي، يزورها بانتظام في المدرسة. وفي يوم أحد أخذتهما غوين معها إلى البيت لشرب الشاي. منزل غوين، مقارنة مع منزل أقارب أليغرا، كان متواضعاً، لكن روي لم يجد شيئاً لا يرضيه فيه، بل الواقع أنه وجد في المنزل الصغير ما يدعوه لتكرار زياراته إليه مراراً. لكن مرت سنتان قبل أن تفهم غوين سبب زياراته المتكررة، ولم يكن هذا إلا بعد أن هرب مع كريستين ليتزوجا.

ولأنهما لم يجدا أي سبب وجيه لمثل هذا الزواج «الخطيفة» استاء والدا كريستين كثيراً.. لكن هذا الاستياء، لم يكن شيئاً بالمقارنة مع غضب شقيق غوين الأكبر ميشال دوكوبيري، فالكلمات القاسية التي قالها عبر الهاتف لوالدة كريستين ليعبر فيها عن رفضه لهذا الزواج جمّدت الدماء في عروق هانا، وتبع ذلك توقف اليغرا فجأة عن زياراتها وعادت رأساً إلى فرنسا.. وهنا، في هذه المزرعة بالذات، تمكن ميشال دوكوبيري من إرباك كريستين حتى أنها توسلت لأبويها الانتظار قليلاً قبل المجيء إليها لرؤيتها.

حاولت كريستين أن تشرح، بعد انتهاء شهر عسلها، بأن ميشال كان السبب في هربها مع روي.. فلقد اختار عروساً فرنسية لأخيه الأصغر، وفي فرنسا، حتى هذه الأيام، لا زال الناس يفضلون مثل هذه الزيجات المدبرة.. وأعلنت كريستين أنها بطريقة ما، تفهم موقف ميشال منها ويجب إعطاؤه الوقت ليسامح وينسى، وتوسلت لأبويها أن يصبرا.

لكن، بالرغم من تفاؤل كريستين، لم يحدث شيء، فلم يبدو على ميشال دوكوبيري أنه مستعد أن يسامح أو ينسى. وكانت كريستين تزور ذويها باستمرار في غرينوبل، وهذا كل شيء. ولم توجه الدعوة لأي منهما

لمرافقتها إلى فرنسا. وهذا أمر أثار الكثير من الجدال بين الأم وابنتها حتى أنهما بالكاد كانتا تتحدثان بشيء آخر.

بعد ولادة طفل كريستين.. أحست غوين، وبالرغم من تعلقها بعمها وزوجته، بالارتياح لقرار هانس السفر إلى جنوب افريقيا وأخذ هانا معه.. وكانت غوين يومها تعيش في لندن تدرس «حضانة الأطفال» وهو الميدان الوحيد الذي تهوى أن تعمل فيه، وهكذا لم تستطع السفر معهما، حتى ولو أرادت. لكنها أملت أن يفيد تغيير المناخ زوجة عمها ويريح بالها.

لكن، لسوء الحظ، ألقى هانس اللوم على هذه الرحلة بالذات حين وقعت المأساة.. فقد أقنعت كريستين زوجها، أن يأخذها في عطلة قصيرة إلى جنوب أفريقيا لزيارة والديها.. وذلك ضد إرادة ميشال، كما عُرف فيما بعد.. وهذه المرة، لا بد أن المنشائم الأكبر قد اقتنع أن لغضبه ما يبرره، حين تحطمت الطائرة التي تحمل أخاه وزوجته في البحر وقُتل جميع ركابها.

كانت الصدمة أكبر من أن يتحملها هانس، الذي لام نفسه بغباء على ما حصل. على الفور، وبعد سماعه الخبر، انهار وأصيب بنوبة قلبية، دخل إثرها المستشفى للعلاج، وتكرر استشفاؤه عدة مرات منذ ذلك الحين. حتى الآن، وبعد ما يقارب السنة، فإن صحته ما زالت حساسة، وكتبت هانا أن طبيبه نصحه بالبقاء في جنوب افريقيا، حيث على الأقل يلقى العناية. وفي رسالتها هذه إلى غوين، أرفقت، الرسالة التي تلقتها من ميشال دوكوبيري، والتي أثارت سخط غوين كثيراً، ولا تزال تذكرها جيداً.

في رسالته، طمأن هانا، وبأكثر من لمحة قساوة، أنه أكثر من قادر على رعاية طفل كريستين بنفسه، ومن الأفضل للجميع، أن يبقى كل في طريقه، وتابع: «إشعال حرب كلامية بيننا لن يفيد الطفل. ونظراً لحالة زوجك الصحية، لن ينظر إليه أحد كوصي مناسب.. تحت رعايتي لن يحتاج الولد إلى شيء، وستكون له حياة أفضل مما تأملان أن توفراها له أبداً. شريطة أن لا تسعيا إلى التدخل.. بالطبع..»

جملته الأخيرة، كانت تحمل أكثر من تحذير.. ابقوا بعيداً.. أو..!

وفي ذلك الوقت بالذات لم يكن هناك ما يستطيع أحد منهم أن يفعله، سوى الإذعان لمشيئة ميشال دوكوبيري.. لكن وقع الرسالة على غوين أشعل ناراً في نفسها، وبعد مرور ستة عليها، فهي ما تزال مستعرة. فهي منذ أن قرأت رسالة ميشال أقسمت أنها ستجد يوماً الوسيلة الكافية لإيلامه بقدر ما جرح مشاعر عمها وزوجته والمسكينة كريستين.. التي ما سمح يوماً لذويها بزيارتها!

ما إن أنهت فترة دراستها وتمرينها، حتى استلمت غوين وظيفة مؤقتة في لندن، ترعى ابناً صغيراً لعائلة رجل أعمال فرنسي وزوجته.. وبحذر، وفرت راتبها على أمل أن تتمكن من زيارة عمها في جنوبي افريقيا.. لكن قبل أن يحدث هذا، وأمام استغرابها، بدأت تتدفق الرسائل عليها من اليغرا.

لم تكن غوين قد شاهدت اليغرا منذ أيام المدرسة.. ومما كتبته لها: «كنت أتمنى العيش في باريس، وكان كل شيء مدبراً إلى أن وقعت الحادثة.. بعدها قرر ميشال أن واجبي هنا، في المزرعة، ويجب أن أبقى لرعاية فيليب، الذي ما زال طفلاً.. إذ يبدو أن ميشال يعتقد أن عليّ مشاركته مسؤولية تربية فيليب تربية ملائمة، كما يظن أنه من البديهي أن أضحي بأفضل سنوات عمري في سبيل ذلك.. ابنة عمنا جوسلين تخشى عليّ من الضياع هنا، وهي تؤكد لي بأنها قلقة بشأني، فهي ليست مقرفة تماماً مثل ميشال..»

كانت آخر كلمات اليغرا التي أفزعتها: «يجب أن تأتي غوين، وتساعديني على إقناع ميشال.. وإذا كان عليّ بعض المسؤولية بالنسبة لفيليب، فكذلك أنت، ويجب أن تشاركي. أنت خالته، كما أنا تماماً عمته..».

بعد محاولات لا حصر لها، ردت غوين بأفضل ما تستطيع، تشير بصراحة في نهاية الرد إلى أنها مجرد ابنة عم كريستين، كما ولا شك تعرف اليغرا هذا، وليست في الواقع خالة فيليب، ولذلك فهي إنما ستضيع وقتها، ولن يكون ميشال مستعداً لاستقبالها.

وعاد رد اليغرا في الرسالة التالية عنيفاً! «يجب أن تأتي! إذا استمريت

بالرفض سأعود بفيليب إلى انكلترا في الحال، وسألقي الزيت في النار! وسأقسم أنك دعوتني، وسيصدقني ميشال، وسينهمك بالاختطاف، وسيكون غاضباً جداً جداً.. ولا تعرفين كيف يكون أخي عندما يغضب، عزيزتي! لكنك تعلمين أنني لن أفعل هذا إلا إذا فشل كل شيء آخر.. أتوسل إليك أن تفكري، عزيزتي. ميشال رجل له أمزجة متناقضة، ولو وصلت إليه بمزاج جيد، فلربما أصغى إليك. أنت تكادين تتخطين الثانية والعشرين، أكبر مني بسنة، وجذابة جداً بشعرك الأشقر الفاتح وعينيك الواسعتين.. وأظنك حين تبتسمين سيرى في عينيك ما يحب أن يراه في امرأة. لذلك يجب أن تبتسمي له غوين، وتؤكدي له أن الزمن تغير، ولم تعد الفتيات تعشن في عزلة تامة، وأنك مستعدة لرعاية فيليب لبضعة أشهر بينما أتمتع أنا بقليل من الحرية.. ولا أستطيع أن أتصور كيف يمكن أن يبقى متصلباً في وقت هو مولع جداً بغرامياته! وأعرف أكثر من فتاة وسيدة في حلبته..».

وتابعت اليغرا الثرثرة في هذا المضمار حتى أحست غوين بالحذر.. إنها لا ترغب أبداً في سماع شيء عن غراميات ميشال دوكوبيري. فهي تحتقره، لكن تصرفات اليغرا غير المتوازنة أمام مشاكلها، أربكت غوين.. وقد تكون قادرة على أن تصل إلى لندن مع الصبي كما هددت!

مع كل تصميمها أن لا تطأ تلك البلاد، إلا أن عقلها انشغل قلقاً بمشكلة فيليب. أمن المعقول أن يُربي طفل على يد أمثال هؤلاء الناس؟ لكن أليس ذلك أفضل له من أن يعيش في غرفة مستأجرة وضيعة في لندن؟ هذا على افتراض سماح ميشال المتعجرف بهذا! مع كل هذا، لم تشعر غوين بالخطر الحقيقي حتى الرسالة الثالثة، حيث هددت اليغرا بالاتصال بهانس وهانا، ولم يعد لديها خيار آخر سوى الاستسلام، فمن الواضح أن هانس، إذا واجه مثل هذه المعضلة، سينهار ثانية، وعرفت غوين أن بيدها منع حدوث ذلك!

في ردها، وعدت بحذر، أن تقوم بزيارة قصيرة.. وعلى الفور أرسلت اليغرا لائحة بالتعليمات وكأنها كانت تتوقع استلامها.. هناك فندق على مسافة قصيرة من (لي سانت ماري) تديره امرأة إنكليزية، لديها دائماً غرف

فارغة في بداية الموسم.. وهو مكان مثالي لإقامة غوين، وعلى بعد عدة أميال من منزل اليغرا.. وعلى غوين أن تصل إليه وتنتظر اتصالاً من اليغرا.. وعليها عدم الاتصال بها إطلاقاً.

بالرغم من رعبها النفسي من مثل هذا المشروع، إلا أن غوين شعرت بشيء من الإثارة، لا يمكن نكرانها.. في السابق لم يكن لديها الوقت أو المال للسفر.. وعليها الآن أن تجد الاثنين معاً.. وما إن أنهت مدة عملها الأخير، حتى استخدمت القليل مما وفرته من مال لتشتري قماش فساتين حاكتها لنفسها بسرعة، ثم حضّرت جواز سفرها، ووضبت بضع حقائب صغيرة، وفي ليلة ربيعية أخذت القطار من محطة ڤيكتوريا إلى دوڤر، ثم إلى كاليه، لتصل بعد بضع ساعات إلى باريس. ومن هناك، كان ما تبقى من رحلتها جنوباً أكثر سهولة مما توقعت، وكانت ستكون أكثر متعة، لولا ما يشغل بالها.

وجدت الفندق دون عناء، لكن على عكس ما قالته اليغرا، كانت كل غرفة مشغولة، ولولا تدخل المالكة، السيدة ايمز، لكانت ارتدت على أعقابها. إذ يبدو أن المرأة أشفقت لرؤية الصدمة على وجه غوين، وأكدت لها أن بإمكانها الحصول على غرفة لبضعة أيام على الأقل.. وشكرتها غوين بامتنان، مضيفة أنها لا تتوقع أن تحتاج الغرفة لمدة أطول من هذا، لأنها حين يصبح الأمر ملائماً، ستسكن مع أصدقاء لها.

لكن لثلاثة أيام كاملة، انتظرت غوين دون طائل، اتصال اليغرا.. مما أوصلها إلى أعلى درجات التوتر، ولم تعد تجرؤ على مغادرة غرفتها خوفاً من اتصال الفتاة أو وصولها.. في الصباح الرابع، مدفوعة بيأس قلق، اتصلت بالمزرعة وأملها ضعيف بأن ترد اليغرا.. وكانت مخاطرة شعرت بتهورها للقيام بها، في البداية ظنت أن اليغرا ردت، لكن حين تلفظت باسمها، ساد صمت قصير حاد، قبل أن ترد امرأة أخرى، لتعلمها أن الآنسة اليغرا ليست موجودة.

أرجعت غوين السماعة مكانها والخوف يتملكها.. أين يمكن أن تكون

[illegible] ؟ أكانها ماتت على يقين بأن شيئاً ما قد حدث.. هكذا قررت أن لا تبقى [illegible] الفندق وكأنها مجرمة، أو حيوان لا حول له.. يجب أن تذهب إلى [illegible] على الفور، وتسوي الأمر نهائياً.. ساورها الشك بأن اليغرا لا تنوي [illegible] كما وعدت... الإثارة التي شعرت بها غوين حتى الآن، منعتها [illegible] قرار العودة إلى بلادها، دون رؤية أحد.. حتى ولو كان هذا (الأحد) [illegible] دوكويبري بنفسه! فقد يكون قوة لا يستهان بها، لكنها هي أيضاً كذلك [illegible] الأحيان.. ولا يمكنه على أي حال أن يأكلها!

[illegible] المنزل بالياً أكثر مما تصورت، مكان ضخم كالحظيرة بجدران حجرية صلبة وسقف ثقيل من القش، تحته نوافذ صغيرة غير متناسقة.. [illegible] عام، فهو رث لدرجة لا تتوافق مع انطباع غوين عن عائلة دوكويبري. [illegible] أن يكون ميشال دوكويبري يصرف ماله على أشياء أخرى؟.

استجمعت شجاعتها التي بدأت تخذلها، وقرعت الباب بشدة أعلى مما يمكن أن تفعل في ظروف أخرى، وسمعت قرعها العنيف يتردد صداه في الداخل، بفراغ، وكأن المكان فارغ.. وأجفلتها مثل هذه الفكرة وهي تنظر.. لا بد أن تكون اليغرا في مكان ما هنا، خاصة وهي مجبرة على رعاية [illegible] لكن حين انفتح الباب، وجدت غوين نفسها تحدق في عيني امرأة عجوز متصلبة، وهي ليست قطعاً اليغرا!

كادت غوين تفقد النطق لاستغرابها، إلا أن المرأة أمامها لم تفقده، بسرعة رمقت هامتها، ونظرت بعينين سوداوين إلى جسد غوين النحيل، وكأنها تكره المتطفلين:

ـ ماذا تريدين آنستي؟

بسرعة، حاولت غوين استجماع شتات أفكارها، وأخذت نفساً عميقاً.. تقول بالفرنسية:

ـ أنا آسفة.. هل لي أن أدخل؟.. جئت زائرة لأقابل الآنسة اليغرا.

تابعت المرأة النظر بارتياب، دون أن تهتز شكوكها بفرنسية غوين الجيدة.. وقالت أخيراً:

ـ أنت لست واحدة منا آنستي . . ونحن هنا لا نهتم بالغرباء .

أحست غوين بفقدانها لأعصابها في لحظة ظنت فيها أن الباب سيصفق في وجهها . . فصاحت :

ـ لكنك مخطئة يا سيدة . لا أستطيع أن أشرح لكِ ، لكن أرجوك أخبري الآنسة اليغرا أنني هنا ، وأؤكد لك أن كل شيء سيكون على ما يرام .

واضح أن المرأة لم تتأثر ولم تقتنع ، كادت غوين ، في لحظة يائسة ، أن تندفع في طريق ليس لها أفضلية فيه . . وقاطعتها بوحشية :

ـ أود إذن ، إذا لم تكن الآنسة اليغرا هنا ، أن أرى الطفل .

ـ الطفل ؟

ـ نعم الطفل . . فيليب ! أريد رؤيته على الفور . . أتفهمين ؟

أحست غوين أنها ارتكبت غلطة فادحة . . لكن من المستحيل تغيير الأمور الآن . . إضافة إلى أن القلق المسيطر عليها كان قد أربكها وأثار أعصابها وبدا أن كل كلمة تتفوّه بها قد تزيد الموقف سوءاً . . وقالت تعتذر ثانية ، وقد استدارت المرأة لتبتعد :

ـ أنا آسفة . . !

مع أن غوين توقعت أن يُرمى بها إلى الخارج ، فقد أحست بارتياح كامل حين تمتمت المرأة متجهمة :

ـ لو انتظرت هنا قليلاً آنستي ، فسأرى ما أستطيع أن أفعل .

لوحدها ، عادت المخاوف تجتاحها من كل الجهات : كل ما جرى ، جو المنزل ، غباؤها في المجيء إلى هنا ، كلها أمور تخيف . . بعجز أخذت تنظر حولها . . إنه ليس المكان الذي طالما تكلمت عنه مع اليغرا دوكوبري ، ولا تذكر أن كريستين وصفت لها المنزل هكذا ، فهي دائماً كانت تكره الحديث عنه . . المنزل غير عادي ، يختلف عن أي منزل ريفي شاهدته غوين في انكلترا . .

تنهدت غوين ، قلقة فجأة . . أين هي اليغرا بحق الله ؟ لقد طال غياب المرأة ، وتدفقت دماء السخط مجدداً في شرايينها ، حتى أنها حين سمعت

الباب ينفتح خلفها بشكل فظ استدارت بسرعة ، ووجهها متصلب بالغضب .

لكن مرة أخرى لم يكن الداخل اليغرا . . بل رجل وقف هناك ينظر إليها بعينين خضراوين غريبتين . . ولا تظن غوين إطلاقاً أنها شاهدت رجلاً مثله من قبل ! ولم يكن السبب أنه كان يبدو مرتفع القامة فوقها ، أو أن تعابير وجهه كانت قاسية غير مبالية ، ومنزعجة بقدر انزعاجها . . بل أن غرابته كانت تبدو أكثر في طريقة وقوفه بهدوء ، أمر كان يتوافق مع سمرته ، والثياب التي يرتديها . بذهول نظرت غوين إلى الحذاء الجلدي المرتفع الساقين العالي الكعبين ، وقبعته الواسعة ، التي ذكرتها «بالكاوبوي» . . وعندما اقترب منها امتلأ أنفها برائحة الجلد الحار والعرق ، فأجفلت ، وكأنما غريزتها تدافع ضد التأثير الصاعق للرجل عليها ، بالرغم من وضوح الغبار عليه إلا أن مظهره الجميل لا يمكن إنكاره ، مع ذلك وبسبب الغبار الذي بدا ملتصقاً بكل جزء من جسده ، لم تستطع غوين أن تخمّن عمره . . مع ذلك فهو أكبر منها بكثير ، متقدم في الثلاثينات من عمره . . وخفق قلبها وهي ترد نظرته المتسائلة الضيقة ، بعد أن أحست بتأثير نظراته الثاقبة الحادة . . ولم تعد بحاجة ، بعد اللحظات الأولى المخيفة ، إلى أن يخبرها أحد من يكون .

مع ذلك ، كان هو من تكلم أولاً ، وعيناه تجوبان ببرود جسدها النحيل . . قال ، بصوت زاد من توتر أعصابها :

ـ مساء الخير يا آنسة ، ما الذي أستطيع فعله لك ؟ أنت تسألين عن ابن أخي ، كما قيل لي ؟

ـ أجل . . أجل . . هذا صحيح .

في غمرة تشوش بالها نسيت أن ترد تحيته ، أو حتى أن ترد عليه بالفرنسية . وأمام رجولته الحادة ، تلاشت نظرتها وأخفضت نظرها ، وهي تحاول بقوة أن تقرر ما عليها أن تفعل . . أكملت بأنفاس متسارعة :

ـ أنا غوين كرايجر . . ابنة عمي كريستين كانت زوجة أخيك . وكانت تعيش هنا . .

بإحباط ، صمتت . . مدركة أنها تعطي تفسيرات لا لزوم لها ، لن تؤثر

على هذا الرجل إطلاقاً . . ونمكنت أخيراً من أن تهمس، أمام تصلبه:

ـ هكذا ترى . . أنني أعرفك .

عيناه الزرقاوان الباردتان، ضربتا خديها المحمرين، لكن، لم يكن فيهما أي دليل على أن ما قالته أثاره . ببرود ساخر، وسخرية كأنها «الدوش» البارد، رفع رأسه يقول بنعومة:

ـ آنستي . . أقترح عليك أن لا تتمادي أكثر . فأنت ستضيعين وقتك فقط . . فمثل هذه المعلومات التي أعطيتها لي ليس من المستحيل أن يجدها أحد . . ألديك دليل على هويتك؟

ـ لا . . لكنني لست كاذبة، يا سيدي، وأنا أعرف شقيقتك .

نظر إليها بثبات، وسخرية:

ـ وهذا ما تريدينني أن أصدقه . . خاطفون آخرون حاولوا إقناعي بالشيء نفسه .

أحست غوين بصدمة جعلت تفكيرها يتشتت .

ـ خاطفون؟

لم تستطع إشاحة بصرها عن بريق هاتين العينين الغريبتين . . للحظات بدا لها أن صوتها ضاع في حنجرتها، ولم تستطع إطلاق كلمة أخرى . . ربما لم تسمع ما قاله جيداً؟

وكأنما قرأ ما تفكر به بدقة شيطانية، فالتوى فمه:

ـ ما سمعته صحيح يا آنسة . . أضيف إلى ما قلت أن عبقرية المجرمين لا تتوقف عن إذهالي . . ولا يمكن للمرء أن يتصور أنهم يمكن أن يستخدموا فتاة بوجه بريء مخادع كوجهك . . كيف وصلت إلى هنا؟

سؤاله المفاجيء، شتت آخر ذرة من تركيزها:

ـ بالسيارة .

ـ بالسيارة؟ لا أرى سيارة . . أين هي؟

غرقت فجأة في ارتباك بارد، وحدقت به مشدوهة:

ـ أوه . . أنها . . أعني . .

قاطع صمتها بحدة، والشرّ يتطاير من كل خطوط وجهه .

ـ نعم . . ؟

شهقت بصمت للهجته . . مع ذلك دفعها هذا إلى المتابعة بوضوح:

ـ تركتها على مسافة قريبة، خلف غابة أشجار صغيرة .

ـ مخبأة!

دون إعطائها فرصة للتوضيح، وعلى غير استعداد أن يصدق شيئاً غير رأيه، قال:

ـ أو خائفة من أن يضبطك أحد؟ لا بد أنك استعديت للهرب بسرعة حين تدعو الحاجة . . ولا بد أن لمخاوفك ما يبررها . . الرجال عادة يفوتهم أن أعصاب المرأة أضعف مما يجب أن تكون، وأنها نادراً ما تمتلك الخبرة الكافية للاشتراك في مشروع كهذا . . وكان على أصدقائك أن يعلموا بأن ميشال دوكويبري يعرف الكثير عن النساء، ولن تخدعه واحدة منهن .

استدارت غوين إليه بغضب، وقد أغاظتها عجرفته إلى أقصى حد . . كل شيء يؤكد لها أنه يظن نفسه عالماً بكل شيء عن النساء . . إلاّ أنها لاحظت أن رجلاً كهذا يعبر عنه وجهه القاسي والالتواء في فمه لا يعرف الرقة أبداً . . ولا بد أن تكون علاقاته عنيفة . . أما شعور المرأة فهو آخر ما يهم رجلاً كهذا!

وجدت غوين نفسها ترتجف، وعيناها تجولان في قسمات وجهه القاسية، لا تعرف من أين جاءتها مثل هذه الأفكار الحميمة عنه، لكن مستعدة للاقتناع بأنها وليدة ريبته الحقودة، التي لا أساس لها، بالنسبة لأمانتها . . ولا عجب إذن أن كريستين لم تحبه أبداً!

وجدت نفسها تقول بكل برود:

ـ مسيو دوكويبري . . أنت ببساطة، لا يمكنك أن تدرك مدى خطورة مزاعمك البلهاء هذه؟

كلمة البلهاء، لا بد كانت غلطة . . فما إن تلفظتها حتى اشتد فكاه بوحشية، ورد بصوت متوتر قاسٍ انه لا ينوي مطلقاً أن يسحب كلمة مما

قاله، وتابع بقصد الإهانة:

- أصدقاؤك أخطأوا هذه المرة يا آنسة.. فأنت أكثر سذاجة من أن تخدعي أحداً!

أحست بارتجاف مؤلم من الغضب:

- كيف تجرؤ على قول هذا؟ أريد فقط رؤية طفل كريستين. ولماذا أريد أن أخطفه؟

حدّق بها باستخفاف، بطريقة محسوبة لتثير أعصابها.. وضحك، لكن دون مرح إطلاقاً. والتوت شفتاه احتقاراً:

- المال يغوي أفضل الناس يا آنسة.. لكن بالنسبة لذوي المبادىء المنحطة، فهو لا يقاوم.. بل قد يتحول إلى معبود.

مصدومة إلى أبعد مدى، صاحت غوين متهورة، تمرر عينيها متعمدة في الغرفة البالية قبل العودة إلى النظر إلى قميصه المغبر الرث، أحد أزراره مقطوع عند العنق ليكشف شيئاً من بشرة صدره السمراء.

- وما هو المال الذي يمكن أن أتوقعه من جنابك؟ واضح من طراز منزلك، أنك لست مليونيراً!

تقدم خطوة مهددة نحوها، ومد يده يمسك ذراعها. وجهه غاضب متجهم، وكأنما ملاحظتها الساخرة كانت القشة الأخيرة.. وصاح:

- يا إلهي.. بإمكان المرء على الأقل الإعجاب بلص يعترف بما في قلبه من إجرام.. لكن، لص يدّعي البراءة، ليس له عندي سوى الاحتقار.

بوجه أبيض شاحب، حاولت غوين تخليص ذراعها منه، لكن أصابعه، اشتدت حوله كطوق من فولاذ، وبدت كلماته وكأنها تنفجر في أذنيها.. فصاحت مختنقة:

- يا للسماء! لا يمكن لفيليب أن يكون آمناً مع رجل مثلك!

شفتاه اللتان تبثان أنفاساً حارة فوق بشرتها الباردة كانتا على مقربة من وجهها حين تمادى بعجرفته المهينة:

- لا أعرف تماماً إلى ما تشيرين يا آنسة. لكنني أطلب منك الرحيل قبل

أن أفقد صبري وأعصابي تماماً.. حينها لن تتمكني من النجاة بسهولة.

على صخب ضربات قلبها الشديدة، والتي أخذت تهز جسدها النحيل، حاولت غوين تجاهل لهجته المهددة، واقتنعت أن الأمر الوحيد الممكن فعله، هو تليين موقفها.. فقالت له:

- وإذا رفضت؟.. لا يمكنك إجباري بالقوة على الرحيل؟

اشتد ضغط أسنانه البيضاء فوق بعضها، ينظر إليها نظرة ساخرة قاتمة:

- أنت مخطئة يا آنسة! أنا أكثر من قادر، على إزالة أي إنسان عن ممتلكاتي.. ربما ترغبين في تجربة؟

أمام رعبها.. وقبل أن تفهم ما ينوي.. اشتدت قبضته على ذراعها، والتفّ ذراعه الآخر حولها، وحملها إلى خارج الغرفة.. ينزلها بسرعة على الدرجات غير المستوية التي تقود إلى الخارج، ودون الاهتمام بمقاومتها المذعورة، وضعها بخشونة على الأرض. الدفعة التي دفعها إياها، تسببت بفقدانها ما تبقى لها من توازن، وانتهى بها الأمر لتسقط عند قدميه.. وإلى أذنيها المذهولتين، بعد لحظات، وصل صوت إقفال الباب بشدة.. صوت قوي أبلغها، دون مجال للشك، أنه لم ينتظر ليرى، إذا كانت قادرة على لملمة نفسها لتقف!

* * *

٢ - من أجل المال

تكاد تبكي رعباً، زحفت غوين على منكبيها لتقف على قدميها، لا تعي تمزّق فستانها، ولا الكدمات على أطرافها. تتمنى لو أنها كانت قادرة على الاندفاع وراء ميشال دوكويبري، لتعاقبه على ما فعل.. حدّقت لدقيقة طويلة في الدرجات الحجرية التي اختفى فوقها.

غصة مؤلمة علقت في حنجرتها، فاستدارت مبتعدة، غضبها يهجرها بالسرعة التي تصاعد فيها. ما تبقى في قلبها فقط القنوط المؤلم، إحساس بالإحباط، وقناعة، إن معظم ما حدث كان غلطتها.. ولا بد أنها تعاملت مع ميشال دوكويبري بطريقة سيئة حتى تخلص هكذا!!

مع ذلك، أكانت غلطتها أم لا، فهي لم تتلقَ يوماً مثل هذه المعاملة السيئة! ميشال دوكويبري قطعاً وحش، ظالم، وندمت لأنها لا تملك الوسيلة لتوصل إليه بوضوح رأيها الصريح بتصرفاته الشيطانية.. لكن هذا لن يجعله سوى أن يضحك.. ويمكنها تصور ذلك الرأس الأسود الشعر ينقلب إلى الوراء ضاحكاً منها وعيناه الشريرتان تلمعان.

عضت على شفتها السفلى الممتلئة، بعد أن آلمها جانبها. وسارت ببطء عائدة إلى السيارة.. وهي تقاوم رغبة ملحة بأن تركض.. فهي لا تشك في أن الرجل يقف الآن في النافذة، ليتأكد من رحيلها.. رفعت هامتها، حاولت السير بثبات.. يجب أن تظهر له أنها ليس مهزومة تماماً.. إذا كان يراقبها حقاً.

عادت سريعاً إلى الطريق، وضغطت قدمها على دواسة الوقود، ودون النظر إلى زوبعة الغبار التي أثارتها، تركت المزرعة خلفها.. هبت ريح هائجة فوق الأرض الترابية، لكن غوين لم تهتم بها.. إنها ريح شمالية جافة، كانت تعلم أن ما من يوم يمر على منطقة «كامارغ» خلال الصيف، دون هبوب مثلها.. لكنها اليوم كانت تهب بشدة، تهز السيارة الصغيرة، تدفع بالغبار إلى دوامة عند الأفق..

مع كل محاولاتها لصرف نفسها عن التفكير بما حلّ بها، إلاّ أن الأفكار المرعبة عادت بها الى ذاك المتعجرف، وإلى فشلها في تحقيق الغاية من رحلتها. لقد جاءت إلى هنا لرؤية اليغرا وطفل كريستين، ولم يعد بإمكانها أن تفعل شيئاً إزاء الأحداث. ولا فائدة من ملامة نفسها على الفشل أو التفكير بالمحاولة ثانية.

بوصولها إلى الفندق، تركت مفاتيح السيارة في مكتب الاستقبال واستعادت حقيبة يدها شاكرة، قبل أن تذهب إلى غرفتها، في الداخل، جلست إلى حافة السرير تحاول مراجعة الموقف بوضوح، هذا الصباح ثبت فشلها تماماً.. لكن، هناك شيء آخر يجعلها تضطرب بالشدة نفسها.. مالها أخذ ينفذ.. متجهمة أخذت تتفحص محتويات حقيبتها.. بقي معها ما يكفي فقط ليوم واحد، أو ليومين، إذا اقتصدت في وجبات الطعام..

تجعّد جبينها الناعم الأملس وهي تحصي ما بقي معها من فرنكات.. كان من الغباء أن تأتي إلى هنا بالقليل من المال، لكن هذا هو كل ما قررت أنها قادرة على استخدامه من المال الذي وفرته للسفر إلى جنوب افريقيا، ولقد وعدتها اليغرا، أن لا تضطر إلى البقاء في الفندق أكثر من ليلتين.

بدأ رأسها يؤلمها، وكلما تعمقت في التفكير، زاد تشوشها، ولخجلها، لم يكن كل ما تفكر به هو الطفل، بل وجه الرجل القاسي، وصورته المتكبرة السمراء، وارتجاف جسدها تحت وطأة ذراعه المؤلمة.. وما كان عليها سوى أن تغمض عينيها لتسمع الترددات المغرية لصوته.. ولكن من الأفضل لها أن تتذكر أن لهذا الصوت وقعاً مريراً، وأن في عينيه

فواشة الحب
www.liilas.com

سخرية باردة تعكس بوضوح رأيه في النساء كافة. وأن تتذكر أخيراً، الإذلال الكامل في آخر ما حدث!

كانت تنظف نفسها وترتب ثيابها قبل الخروج للتفتيش عن وجبة طعام رخيصة، حين جاءتها فكرة. . لم تكن فكرة مبتكرة، أو مثيرة. . لكن، ولأن الجزء المنطقي من عقلها كان غير قادر على ابتكار فكرة أفضل منها. . تمسكت بها. . لماذا لا تجد لنفسها عملاً؟

مرة أخرى تجعد جبينها الأملس بالعبوس والشك. . كيف للمرء أن يبحث عن عمل في بلد غريب؟ ربما أفضل ما تفعل، أن تسأل السيدة ايمز، التي تبدو دائماً راغبة في إسداء النصيحة لنزلائها. بسرعة، ودون أن تبدل فستانها الوسخ، سارعت إلى الطابق الأرضي. وكانت السيدة ايمز في مكتبها، حيث أملت غوين أن تكون. . لم يكن هناك أحد سوى سكرتيرتها التي صرفتها إلى طاولة الاستعلامات حين طلبت غوين بخجل أن تتكلم معها على انفراد.

- والآن يا عزيزتي. . ماذا أستطيع أن أفعله لك؟ اجلسي!

ترددت غوين وقد شحب وجهها فجأة، لا تكاد تعي أن المرأة تتفرس بها عن كثب وهي تجلس في الكرسي الذي أشارت إليه. وبدأت بارتباك:

- أنا آسفة. . لم أقصد أن أتطفل عليك هكذا. . الأمر، أنني سيدة ايمز. . إن ما جئت لأجله إلى هنا لم يتم كما كنت أتوقع. . وأريد أن أجد عملاً. . لكنني لا أعرف أين أبدأ، وتساءلت إذا كان بإمكانك مساعدتي؟

مع أن السيدة ايمز تعجبت، إلا أنها لم تظهر عجبها، وهي تريح نظرها بفضول على فستان غوين الممزق.

- قلتِ لي إنك هنا للقاء صديق، ربما حبيب، أو شخص خذلك؟

أجفلت غوين، واحمرّ وجهها، فهي لم تتوقع مثل هذا السؤال. . وتمكنت من هز رأسها بغموض تتملص من الإجابة، على أمل أن لا تتابع السيدة ايمز الموضوع.

ولم تفعل السيدة هذا. فقد أقنعتها حمرة خدي غوين، وانخفاض

رموشها، إن تخمينها صائب. . وهي مشغولة أكثر من أن تحاول إضاعة الوقت أكثر:

- آسفة عزيزتي. . لكن مثل هذه الأمور تحصل. . والآن ترغبين في إطالة إقامتك، على أمل أن تلتقي مجدداً بالشاب؟ حسناً. . تودين العمل، لكن هل أنت مدربة على عمل ما عزيزتي؟

الارتياح طغى بسرعة على السخط. . ووجدت نفسها توافق بتوق، وتعرّف السيدة ايمز ببعض التفاصيل عن تعليمها. . وما لم تكن تتوقعه، هو صيحة الابتهاج من السيدة ايمز. إذ ابتسمت قائلة:

- لا بد وأنك الاستجابة لصلواتي: فأنا عادة أستخدم ممرضة، فالعديد من النزلاء لديهم أطفال، ويرحبون بوجود من يريحهم من أطفالهم أحياناً، ويراقبهم في الأمسيات التي يخرجون فيها، أو حتى يتناولون العشاء في الفندق. ولسوء الحظ، المرأة التي استخدمتها منذ سنتين، استدعيت إلى انكلترا على عجل لمرض أمها الشديد. . وأنا في الواقع أبحث عمن تكون ملائمة لتأخذ مكانها، إنها تأمل أن تعود بعد أسبوعين. وبما أنها جيدة في عملها، وعدتها أن أبقي لها الوظيفة مفتوحة، على الأقل لفترة. فإذا قبلتِ العمل على أساس فترة قصيرة، فالوظيفة لكِ.

أكملت السيدة ايمز بضعة تفاصيل، وقالت إنها مسرورة بكفاءة غوين ومؤهلاتها، وكان رضاها ظاهراً حين عرفت أنها إضافة إلى الفرنسية، تعرف القليل من الألمانية والإيطالية.

وقالت السيدة ايمز تشرح لها:

- بما أننا نستقبل الكثير من الزوار من هذين البلدين، ستكون معرفتك هذه مفيدة.

وعندما عرضت عليها السيدة ايمز أن تبدأ العمل في الحال، صرخت غوين مرحبة بالفكرة، دون أن تدرك تماماً ما تأخذه على عاتقها.

خلال الأيام التي تلت، واجهتها الحقيقة، وتلاشى القليل من تفاؤلها، حيث وجدت نفسها مضطرة للإشراف على عدد كبير من الأطفال الصغار. .

ولم يواسها أن تذكر نفسها بأنها على الأقل ما تزال في كامارغ، وأن هذا العمل ساعدها على عدم الاستسلام كلياً أمام تصرفات ميشال دوكويبري الفظة، فهي لم تضطر للعودة إلى بلادها فوراً، دون أمل برؤية فيليب مرة أخرى، ومن دون أن تقول لميشال دوكويبري ما يجب أن تقوله له!

وجدت غوين وظيفتها الجديدة ممتعة، لكنها عمل شاق. أحياناً كانت تجد صعوبة في أن تقرر من هو المتطلب أكثر، الأطفال أم ذويهم. فالأهل، كما هو واضح، يتوقعون منها الاستمرار بتقديم الخدمات لهم بعد أن يأوي أطفالهم إلى الفراش..

صباح يوم الثلاثاء الذي تلا، وقبل أن تأخذ مجموعة من الأطفال للعب في بركة السباحة الصغيرة، تلقت صدمة أخرى. كانت قد ذهبت مع أب لأخذ إطار بلاستيكي قابل للنفخ من سيارته، وعادت أدراجها لوحدها، لتجد، أمام ذهولها الكامل، أن اليغرا وصلت إلى هناك. كانت تقود سيارة صغيرة صفراء برّاقة، ومع أن غوين وقفت تحدق بها دون قدرة على الكلام، إلا أن اليغرا لم يبدُ عليها أنها استغربت لرؤية غوين.. الاستغراب الوحيد الذي بدا عليها كان نظرتها الموجهة إلى مجموعة الألعاب بين يدي غوين.

ـ مرحباً عزيزتي!

ضحكت وعيناها تتجعدان بمرح مفاجىء وهي تنزل زجاج نافذتها وتمد رأسها إلى الخارج قائلة:

ـ لا تقولي لي إنك أحضرت كل هذه الهدايا لفيليب؟ إنه لا زال صغيراً عزيزتي.. ولديه ما يكفيه.

اتسعت عيناها ذهولاً.. حقاً كم يتكلف آل دوكويبري على مثل هذه العجرفة! ها هي، مرهقة تقريباً بعد أسبوع من القلق، دون ذكر العمل، وكل ما تقوله أو تفعله اليغرا، وبعد أن أبقتها منتظرة طوال هذا الوقت، هو أن تضحك وتمرر ملاحظة سخيفة. أخيراً تمكنت، وبفظاظة غير مكبوتة، من أن تقول:

ـ حقاً اليغرا.. ولك الجرأة!

سألت الفتاة دون فهم:

ـ لماذا.. وماذا تعنين؟

ومع قرف غوين الظاهر، لم تظهر الفتاة أي دليل ندم، وبعد كلماتها الوقحة الأولى، اختارت أن تنظر حولها في الموقف وكأنها تخاف أن يراها أحد. ثم أكملت بسرعة دون انتظار الرد:

ـ اسمعي غوين.. أظن من الأفضل لو نتكلم في مكان آخر. لا أريد أن ترانا السيدة ايمز معاً.. فهي جاسوسة لأخي.. تلك المرأة!

زاد سخط غوين لتجاهل اليغرا واقع تأخرها أسبوعاً، وقالت تذكرها بحدة:

ـ كانت فكرتك أن أقيم هنا.. وتلك المرأة، كما تسميها، هي الآن ربة عملي.. لذا لن أستطيع فعل ما طلبتيه حتى لو أردت.

لأول مرة نظرت اليغرا إليها بطريقة ملائمة:

ـ غوين! ما بالك عزيزتي؟ تتصرفين بغرابة.. ثم ماذا تعنين؟ كيف يمكن أن تكون السيدة ايمز ربة عملك؟ أنا لا أفهم.

نظرت غوين إليها ببرود:

ـ يبدو أنك نسيت أنني هنا منذ أكثر من أسبوع.. وكان عليّ أن أفعل شيئاً حين لم تظهري.

لوحت اليغرا بيديها.

ـ أسبوع! حبيبتي.. لكنك قلت إنك ستصلين اليوم!

ـ قلت في أول الشهر.

ـ لا غوين.. بل قلت في التاسع منه!

ردت غوين بشراسة:

ـ اسمعي.. لقد سجلت التاريخ بدقة واليوم وكل شيء، ولا يمكنني أن أقوم بمثل هذه الغلطة.. ألديك خطابي؟

لأول مرة تنازلت اليغرا لأن يبدو عليها قليل من الخجل:

ـ أنا آسفة يا عزيزتي.. أترين، لقد فاجأني ميشال وأنا أقرأها،

واضطررت لرميها في النار بسرعة.

تنهدت غوين بعمق، تكبح تعاظم نفاد صبرها.. مقتنعة بأن الالتباس قد يكون ناجماً عن عدم سوء نية من اليغرا.. فهي في ظروف أفضل كانت ذاكرتها تخونها، لكن ما لم تفهمه غوين، لماذا لم تتذكر اليغرا جيداً هذه المرة، وهي التي كانت حذرة جداً.. أم أن سبب نسيانها هو أن ميشال دوكوبيري بسبب الخوف في نفس من يحب بقدر ما يفعل للغرباء؟

كررت بلهجة أكثر هدوءاً، تحس بعدم جدوى النقاش:

- جئت في الأسبوع الماضي.. وانتظرت ثلاثة أيام قبل الذهاب إلى المزرعة.

اتسعت عينا اليغرا كصحنين واسعين:

- ذهبت إلى المزرعة؟

للحظات نسيت ضرورة مغادرتها لباحة الفندق بسرعة وهي تتطلع إلى وجه غوين المتصلب.. وردت غوين بصوت متحجر:

- أجل.. ورماني شقيقك إلى الخارج، فعلياً لكنني لم أرك.

صاحت اليغرا بهمس أجش:

- يا إلهي! لا بد أنك كنت مجنونة للتفكير بمثل هذا! لقد حذرتك من ميشال.. ومع ذلك ذهبت إلى المزرعة.. هكذا.. أنت.. مستحيل.. مغفلة! في أي يوم كان هذا؟

أمام هذا الهجوم احمرت وجنتا غوين الشاحبتين:

- يوم الأربعاء..

- الأربعاء؟.. وكيف لم أرك؟ كنت في المنزل طوال اليوم.. وماذا تعنين أنه رماك إلى الخارج؟

ردت بمرارة:

- لا حاجة لك لإزعاج نفسك.. لقد تألمت، لكنني أعتقد أنك معتادة على رؤية معاملة الضيوف هكذا.

نظرت اليغرا حولها مذعورة وتقطيبة تفكير عميق على جبهتها الضيقة:

- أووه.. لو أنك انتظرت قليلاً! الآن تكدر ميشال.. ويجب أن نصل إلى حل، لكن ليس هنا.. يجب أن تأتي معي في الحال.

يا لهذه الوقاحة! هزت غوين كتفيها دون اكتراث، دون أن تتأثر إطلاقاً.. فبهذه الطريقة التي تكلمت فيها، ذكرتها اليغرا بأخيها.. ومنعتها كراهية عنيفة لميشال دوكوبيري عن الموافقة على اقتراح اليغرا.. ثم، إنها لا تستطيع الخروج هكذا. ليست حرّة أن تفعل.

- لا يمكن أن أذهب معك، يجب أن تنتظري إلى أن أحصل على وقت فراغ، وبما أنني بدأت العمل منذ وقت قصير، لا أعرف متى يكون هذا.

- لكن، يحق لك بوقت راحة عزيزتي..!

ودون اهتمام بكلام غوين أو احتجاجاتها، سمّت لها قرية صغيرة على مسافة قصيرة على الخط الساحلي.

- سأقابلك هناك في الغد.. وهذا الوقت سيسمح لك بترتيب ما ترينه ضرورياً.

دونما أي منطق، بدأت تفكر ثانية، متأرجحة الفكر بالرغم منها:

- لست أدري.. يبدو أن السيدة ايمز تظنني تخاصمت مع صديقي، وأنا لم أصحح لها هذا الانطباع.

لدهشتها، رنت ضحكة اليغرا الخليعة في المكان وصاحت:

- أوه غوين! سيشعر ميشال بإرضاء غروره.. لو أنه رماك إلى الخارج، فبكل تأكيد ليس لأنه عرف من أنت؟ لا يمكن أن تكوني قلت له!

مرة أخرى احمرّ خدا غوين، وكرهت نفسها لإحساسها بالذنب. وسمعت نفسها تعترف على مضض:

- أعتقد أنني فعلت هذا.. لكنني لست واثقة أنه فهم تماماً، فهو يتصور أنني عضوة في عصابة، تحضّر لاختطاف فيليب.. وهذا على ما أعتقد، ما أثار غضبه.

نظرت اليغرا إليها غير مصدقة:

- أنت.. تختطفين فيليب! لكن بلى.. فهمت الآن.. لقد مررنا بقليل

من المتاعب.. لكن بالنسبة لك، هذا لا يعقل.

- ماذا تعنين؟

نظرت إلى ساعتها، الأطفال يسأمون الانتظار..

- آسفة غوين، لا أستطيع شرح الأمر لك الآن. ليس لدينا وقت.

من زاوية عينها، لمحت اليغرا السيدة ايمز تبحث عن غوين، فتابعت:

- ها قد جاءت ربة عملك الطيبة. لا شك أنها تتساءل ما إذا كان أحد قد تفعلي!

اختطف عبدتها الجديدة.. لاقيني في الغد عند الثالثة عزيزتي.. يجب أن

بدافع من شعور غريب بالغضب والإحباط معاً، ضاعت صيحة احتجاجها أمام صوت المحرك، وراقبت غوين سيارة اليغرا تستدير وتختفي، متجنبة السيدة ايمز الفضولية.

بكثير من التردد، طلبت أخيراً بضع ساعات راحة لليوم التالي، متظاهرة بعدم رؤية نظرة السيدة غير الموافقة، حتى وهي توافق.. وكانت غوين قد تعلمت بسرعة أن هناك فارقاً كبيراً بين كونها نزيلة فندق، وموظفة فيه.. فقد تغيرت غرفتها، والتي تشغلها الآن لا تزيد عن حجيرة ضيقة بنافذة واحدة صغيرة، مرتفعة على الجدار، لا تنفتح سوى بكثير من القوة والضغط.. وجبات طعامها، طبعاً لم تعد كما كانت، ولا توقعت أن تكون.. لكن الكمية كانت دائماً قليلة حتى أنها كانت تشعر بالجوع، مع أن شهيتها عادة قليلة.

خلال الأسبوع التالي، تمكنت من لقاء اليغرا بصورة غير منتظمة، المعرضة الأخرى لم تعد، وقررت غوين الاستمرار في عملها مدة أطول.. على الأقل إلى أن تشاهد فيليب.. وفكرت أن من الأفضل أن تكتب إلى جنوب افريقيا تشرح لعمها مكان وجودها.. ومع أنها أغفلت عدة تفاصيل، فإن رد هانا جاء مليئاً بالعرفان للجميل، تسأل بشوق عن حفيدها، مما دفع غوين لتجديد تصميمها على رؤيته، بالرغم من تصرفات ميشال دوكويبري. في أول لقاء لها مع اليغرا تكلمتا، من بين أشياء أخرى، عن فيليب،

لتشرح اليغرا كيف كاد أن يخطف:

- كان هذا خلال وجود كريستين في المدينة تتسوق، وكنت برفقتها.. وتمكنت امرأة بطريقة ما أن تدخل المنزل، وضبطتها جانيت، خادمتنا، تحمل فيليب بالفعل.. وقالت المرأة فيما بعد إن السبب هو فقدانها لطفلها، وهذا ما قد يكون صحيحاً، لكن المرأة كانت غريبة عن المنطقة وهناك شائعات عن وجود عصابة.. على أي حال لم يثبت عليها شيء، وخرجت بكفالة.. لكن ميشال منذ ذلك الحين، أصبح متشدداً.. ولم يعد يسمح بخروج فيليب من المنزل دون حراسة مشددة..

نظرت إليها غوين بحيرة:

- لكن، لا بد وكان لديك خطة حين استدعيتني إلى هنا؟ لا يمكن أن تكوني استدعيتني كل هذه المسافة لأجل لا شيء؟ وكراهية ميشال لعائلتي ليست أمراً جديداً.

- لم أكن قد رتبت شيئاً.. وكنت واثقة أن شيئاً ما سيخطر لي.

لطالما كانت خطط اليغرا كسراب في صحراء، وهذا ما تذكره غوين بمرارة، كان يجب أن تكون أكثر حكمة! لكن اليغرا فاجأت غوين بمتابعة الكلام:

- في الواقع، فكرت بشيء.. هناك بحيرة غير عميقة على بعد أميال من المنزل.. كنا نلعب فيها ونحن صغار، روي وأنا، وأحياناً ميشال، لكنه كان الأكبر سناً. وبنى لنا والدنا كوخاً كبيراً للنزهات، وهذا ما أبقاه ميشال على حاله دائماً.. وأصبح مكاناً للعديد من أنواع العصافير تفقس فيه وتتكاثر، وأحياناً آخذ فيليب إليه.. البحيرة ليست عميقة، وهو كبير بما يكفي ليراقب الطيور ويلعب قليلاً في الماء.. وهذا ما لا يعارضه ميشال.

أضاء وجه غوين بالشوق:

- أتعنين.. أن ألاقيك هناك.. أنت وفيليب؟

- سأفعل ما أستطيع.. لكن يجب أن تكوني حذرة.. فهناك منخفضات موحلة، قنوات ماء مالحة، لست معتادة عليها، وإذا حل بك أي أذى.. لن

أصل أبداً إلى باريس.

كان من الممكن أن تشعر بالمرح لو أنها لا زالت تحافظ على أعصابها، لأنها تدرك أن اهتمام اليغرا الأوحد هو في خططها الخاصة فقط.. لكن غوين لم تستطع إنكار قشعريرة ترقب وهي تنطلق إلى الموعد بعد ظهر اليوم التالي.. فمع أن هذه الخطة قد تثبت جنونها، إلا أن أي شيء أفضل من البقاء في الفندق.

أعطتها اليغرا توجيهات واضحة وجدتها سهلة المتابعة. الشيء الوحيد الذي يجب أن تحذره، كما قالت لها، وجود أحد النواطير يقود الجياد أو الماشية.. لكن من المحتمل أن لا تلتقي غوين بأي شخص بعد الظهر هناك، فأكثر العمال يعملون في الجانب الآخر من المزرعة.

وهي تضع في ذهنها غموض شرح اليغرا للأماكن بالضبط لم تندهش غوين حين وجدت البحيرة أبعد بكثير عن الطريق مما قالت لها.. لكن ما إن وصلت، حتى أحست بالارتياح لوجود اليغرا والطفل.

كانا يجلسان خارج الكوخ.. فيليب الآن تجاوز السنة.. يلعب بسعادة، بينما كانت اليغرا تتصفح دون اهتمام مجلة أزياء، ولا تعير اهتماماً للطفل إلى جانبها. للحظات توقفت غوين مختبئة.. متأثرة بشكل غريب، وأخذ توترها يزول.. إنه طفل أسمر صغير.. دوكيوبيري تماماً.. لا يشبه كريستين أبداً، إلى أن يلاحظ المرء عينيه الكبيرتين البنيتين الدافئتين كعيني أمه. أحست غوين بأنفاسها تكاد تتوقف بحزن مؤلم.

من على يمينها، سمعت ضحكاً.. فاستدارت بسرعة.. على بعد قليل أمامها، في ظل العشب المرتفع الذي يحد البحيرة، كان هناك رجلان، بديا مسنين، وجهيهما أسمران متجعدان، يلعبان الورق، لا ينظران نحوها وهي تقف تحدق بهما.

رفعت اليغرا نظرها فشاهدت غوين، ونادت بابتهاج:

ـ لا بأس عليك عزيزتي.. هذان هما العجوزان بيتر وانطوان.. من عمال المزرعة.. لا يسمح لي ميشال بالمجيء إلى هنا لوحدي.. وهما

يدينان بالولاء لي أكثر منه..

ردت غوين بحدة وهي تتقدم، غير راضية عن الوضع بالرغم من تطمينات اليغرا.

ـ حقاً؟

صاحت اليغرا وعيناها تسخران من وجه غوين المضطرب:

ـ تعالي وتعرفي على ابن أختك.. فليست لي مشاعر نحو الرجال وهم في هذه السن، كما لا بد تعرفين.. لكن يجب أن أعترف أنه حبيب.. نسبياً؟ أليس كذلك؟

لكن قبل أن تتمكن غوين من الوصول إليهما، أو حتى أن يكون لها الوقت لتكلم الصبي، وأمام رعبها، سمعت صوت محرك تقاد بتهور.. حتى ابتسامة اليغرا المشرقة خبت حين تصاعد صرير الإطارات المكبوحة بشدة عبر الأشجار، تبعها صوت ضربة قوية لإقفال الباب.. صاحت اليغرا مجفلة، تشد فيليب إليها، والذهول المتلبد يطارد تعابير الثقة الفائقة بالنفس عن وجهها الصغير:

ـ ميشال! أوه.. لا!

لكن لسوء الحظ، هذا ما كان.. وتقدم نحوهم عبر دغل القصب الصغير، ثم من خلف زاوية الكوخ.. وجهه أكثر سمرة مما تذكره غوين.. وبدا خطيراً، فمه مشدود، وتحت رموشه كانت عيناه تلمعان.

صاح بأخته:

ـ يا إلهي! ما أن أدير ظهري، حتى تكافئني ثقتي بكِ على هذا النحو.. خذي الطفل وعودا إلى المنزل فوراً.. أما بالنسبة لكما أيها القذران..

التفت إلى الرجلين:

ـ .... سأتعامل معكما فيما بعد.. ولا تأملا أن أنسى.

لمع الثلج في عينيه الزرقاوين، ليصبح غضباً لاذعاً، حين سمح لنظره أن يستقر للحظة واحدة على وجه غوين الأبيض:

ـ وأنتِ، يا آنسة! سأتعامل معك فوراً، حال أن أتأكد من رحيل شقيقتي

الصغيرة السيئة السمعة!

أخيراً وجدت اليغرا لسانها، مع أنها بدت أن ليس لديها فكرة واضحة عن كيفية تسوية الأمور:

ـ أوه.. لكن، ميشال.. لا أعتقد من حقك الحكم على غوين بهذه الخشونة.. كل همها يتعلق بالطفل.

لو أنها كانت تأمل بكلامها هذا التخفيف من حدة الموقف فهي لم تنجح سوى في زيادته سوءاً.. لون الغضب المكبوت طغى على بشرة ميشال دوكويبري.. مما سبب لغوين رجفة داخلية.. وقال موافقاً على كلام أخته ببرود شديد:

ـ هذا ما ليس لدي أدنى شك فيه.. لكن أتوسل إليكِ اليغرا، اذهبي من وجهي الآن، وقبل أن أفقد أعصابي تماماً.. لا أرغب في الحديث معك مرة أخرى!

أعصابه؟ غضب غوين، حلّ قليلاً مكان خوفها، وصعّد السخرية في نفسها. استدارت غوين إلى الرجل الواقف ويداه على خصره فوق بنطلونه المشدود الضيق.. يبدو طويلاً بشكل شرير بحذائه الجلدي المرتفع.. كان شعرها الأشقر يتأرجح بفعل الريح على وجهها وعينيها، وأملت أن يخفي هذا الإحساس بالصدمة الذي تختبره لوجوده قريباً منها.. إنها تواجه الشعور الموتر للأعصاب نفسه الذي عرفته من قبل، وفي وقت لم تفهمه، كان يثير مخاوف غامضة لم تجد سهولة في تفسيرها.. حاولت، ولو في عقلها الباطن، أن تكون متعقلة.

ـ ألا يمكنك، أرجوك، أن تصغي إلي سيد دوكويبري؟ أظن أن عليك أن تصغي، فلا يمكنك الاستمرار في تجاهل الوقائع.. أو الامل بتغييرها عن طريق تجاهلها.

كادت عيناه تخترقان وجهها، دون أن يلين. وللحظات مخيفة، أحست غوين أنه يفكر بأن يرميها في البحيرة. دون وعي منها اتجهت عيناها بخوف إلى المياه القاتمة، المحاطة بالقصب... وسمعته يؤكد لها بصوت

منخفض، وكأنه يقرأ أفكارها بدقة متناهية:

ـ كم سيعجبني هذا يا آنسة.. وكثيراً..

ابتلعت ريقها بألم، تحاول تجاهل التهديد وراء كلماته. واختارت عوضاً عن هذا أن تكرر ما قالته لتوها:

ـ ألن تصغي إلي.. أرجوك؟

ـ إذن ستتوسلين إلي آنسة.. أم تساومين.. ألست قادرة على اتخاذ قرار؟

عاد لون وجهها يتصاعد أمام حدة سخرية صوته، يلون خديها بحمرة شديدة.

ـ أنا نادراً ما ألجأ إلى التوسل يا سيد.. ولن أفكر بالأمر الثاني مطلقاً، خاصة معك.. وأنا لست في حالة لا أستطيع فيها اتخاذ قرار.. لكنني فقط أسعى إلى حل منطقي.

ـ أنت عنيدة يابسة الرأس، وتنتظرين مني أن أكون متساهلاً؟ حسناً يا آنسة.. سأعطيك خمس دقائق فقط، لا مزيد. لكنني أنا من سيتكلم..

دون انتظار كلمة منها، أمسك ذراعها، الذراع الذي تسببت قبضته الشرسة عليها بالكدمات من قبل، وحيث لا تزال آثار أصابعه باقية. وقال ببرود:

ـ تعالي.. سندخل الكوخ.. قليل من الظل قد يساعدك في إلقاء الخطاب الذي أعددته في رأسك، بإتقان أكثر.

وشهقت حين دفعها بفظاظة إلى المبنى الخشبي الكبير.. ولو أنها استطاعت تقييم الكوخ لما أعطته درجة مقبولة.. فليس في المظهر الخارجي الخشن ما يعكس الراحة التي ستجدها في الداخل.. أرضه مفروشة برقائق مطاطية خضراء، وبسط مبعثرة من الفرو الفاخر. وهناك طاولات صغيرة، زجاجية السطح أمامها كراسي وثيرة المفارش.. القماش، حريري، وواضح أنه ثمين، بألوان ناعمة برّاقة، فوق النوافذ ستائر من «الفوال» الرقيق، تتدرج ألوانها بنعومة من الأبيض العاجي، إلى الأصفر، والذهبي،

والمشمشي إلى أن تصل اللون الليلكي.

المكان كله جميل جداً. كواحة وسط الصحراء.. وكأنه جناح «الحريم» في قصة مشرقية، خططه أمير حالم بدقة.. وهذا الأمير لا يمكن أن يكون سوى ميشال دوكويبري.

أحست غوين بمشاعرها تدور في دوامة.. وحين جذبت نفسها من قبضته، واستدارت تواجهه.. خبرت كل الرعب الذي يحس به حيوان صغير عالق في الفخ.

* * *

فراشة الحبة

www.liilas.com

٣ ـ في قلبك جليد!

ساد صمت قلق مشحون بأجواء فقدان الثقة بين الطرفين. حذر غوين وذعرها بات واضحاً، فما تعرفه عن أخلاق هذا الرجل الأسمر ذو الطلة المهيمنة والاندفاعة القرصانية، لا يطمئنها أبداً.. بل أن فكرة امتلاك هذا الرجل القاسي لمثل هذا المكان الحالم ومفروشاته الوثيرة، أثارت فيها موجة من الاستياء ممزوجة بالقلق والدهشة!

سرت رعدة في أوصال غوين رغماً عنها، حين أخذت عيناه تتفحصانها، ويطيل النظر إلى شعرها وكأنما يفكر بلونه الأشقر الشاحب، والخصلات الملتفة التي تسللت من «الشينيون» الذي ربطت شعرها به.. أمامها رجل يلاحظ.. رجل قادر حين يريد، أن يزرع الرعب فيها! مع ذلك كانت مصممة أن لا تخافه.

طافت عيناه على وجهها المتردد، وقال:

ـ أنا بالانتظار آنسي.. إن كرم أخلاقي أتاح لك فرصة لتتكلمي، فلا تستغلي كرمي أكثر مما ينبغي، فإن صبري محدود، وأنا رجل مشغول.

ـ لكن، ليس لدي الكثير لأقوله يا سيدي. كل ما أرجوه هو الإصرار على أن لا تستمر بتجاهل واقع أنني ابنة عم كريستين.

ـ لم أكن أعرف أن لها ابنة عم.

أجفلت غوين.. هل أن كريستين أعطته هذا الانطباع؟ صعب أن تصدق.. حتى لو فعلت لسبب ما، فالدليل مع زوجها وشقيقته اليغرا:

- حسناً.. والدا كريستين تبنياني، لكنني حقيقة ابنة عمها، ولست شقيقتها.

نظر إليها نظرة ساخرة تحمل أكثر من دليل على عدم التصديق:

- حقاً! من الأفضل لك أن تفكري بشيء أفضل من هذا..

كان يتحدث بلغة إنكليزية مكتملة، مع لكنة خفيفة، وإلا لظنت أنها لم تسمعه جيداً. أيمكن أن تكون كريستين قد أجبرت على تحجيم عائلتها كي تتجنب سخط ميشال دوكوبيري؟ وجدت نفسها تصيح:

- سيدي.. لا أستطيع حقاً فهم سبب تصميمك على إنكار الوقائع الواضحة. كما أن شقيقتك تعرفني، ولو أنك تركت لها الفرصة لقالت لك هذا.. كنا في المدرسة معاً.. وكانت تقيم عادة في منزل عمي، وليس صحيحاً أنها لم ترني يوماً.

- هذا ما تقولينه أنت يا آنسة.. مع ذلك هَرَبت وكأن ضميرها يعذبها.. وأعجب لماذا، كما أتساءل يا آنسة، إذا كنت حقاً مَنْ تقولين، فماذا تأملين تحقيقه بالضبط بمجيئك إلى هنا في ساعة متأخرة من بعد الظهر.

سؤاله المفاجيء، أثار غوين وجعلها ترتكب غلطة أخرى، فاليغرا لم تعطها بعد الإذن لكشف دورها..

- أردت رؤية فيليب.. فعمي، كما لا بد تعرف، لا زال في جنوب افريقيا عاجزاً عن السفر، وهو وزوجته قلقان بالنسبة للطفل، وأنت يا سيدي، لا يمكنك الإدعاء بأنه ليس طبيعياً أن يقلقا على حفيدهما الوحيد.. لذلك وافقت، قبل أن أسافر لأنضم إليهما، على أن أحاول رؤيته.

ازداد سواد عينيه بشكل خطير، وهو يتفحص وجهها المتوتر، يراقب كيف يهرب منه اللون ويعود، ليعطيها مظهر الفتوّة والصبا، مع ذلك، كان في عينيه إدراك غريب، أن التي أمامه هنا ليست طفلة بل امرأة.

تمتم دون تفكير تقريباً، وكأن دماغه كان يفكر بإمكانية مناورة أخرى:

- وإذا رفضت أن أدعك تشاهدينه؟

أخذت نبضات قلبها تتسارع أمام نظرته، بحيث أنها قالت بحزم أكثر

مما كانت تنوي:

- لا بد أن يكون لي بعض الحقوق.. وأنا واثقة بما يكفي أنك لن تستطيع فعل شيء إزاء هذا الحق، بالرغم من كلامك المنمق!

- أنت وقحة يا آنسة!

للحظة رهيبة، عرفت أنها تمادت كثيراً. بينما كان هو قد استعاد سيطرته على أعصابه ونظر نظرة ساخرة.

- أي نوع من الحقوق تتصورينه أنت أو عائلتك أستطيع إزالته بسرعة، صدقيني يا آنسة، لقد درست الأمر بدقة.. مكان فيليب هنا، في هذه المزرعة، حيث حين يبلغ سن الرشد، سيرث كل ما يمتلكه أبوه، وعلى الأرجح، الكثير مما أملكه أنا. وما من أحد يمكنك تسميته يمكنه تقديم مثل هذا له، أو يرعى مصالحه مثلي. ودعيني أحذرك يا آنسة، أنا لست ممن يخضعون للتهديد، إلا إذا كنت مستعدة للمخاطرة بتلقي شكل من أشكال الانتقام.

ما الذي يعنيه.. بالانتقام؟ كان واضحاً على وجهه ما يدل على العديد من الأشياء، وأحست غوين أنفاسها تنحبس في حنجرتها، وانزعجت من نفسها أكثر، لأخذها خطوة دفاعية إلى الوراء.. ودون أن تعي ما تقول، صاحت:

- لكن قد يصبح لك عائلتك الخاصة! وقد يكون لك عائلة الآن!

والتمعت عيناه مجدداً:

- إذن، أنت لا تعرفين إذا كنت متزوجاً! لو كنت تعرفين عائلتي، فلا بد أن تعرفي هذا.

احمرّ وجه غوين للهجة الانتصار في صوته:

- بالطبع أعرف أنك لست متزوجاً!

أجفلت فجأة بغضب شديد، نافذ الصبر. كم يبدو لها أن ميشال دوكوبيري، قادر على إثارتها بسهولة.. بدفعها إلى حالة تهور لم تعرفها في نفسها حتى الآن. وأكملت صارخة تكاد دموع اليأس تعمي بصرها.

ـ أما الآن وقد قابلتك، أستطيع فهم السبب! فأنا لا أستطيع التصديق أن في نفسك مكان لحياة زوجية طبيعية! أنت مليء كثيراً بالجليد! ما من تفهم أو حنان في أي مكان فيك.. حتى لو تمكنت من ضم فتاة بين ذراعيك، فلن تعرف كيف تحبها!

بذعر فجائي، انخفض صوتها عند آخر كلماتها إلى الهمس.. لكنه سمعها على أي حال.. وتجهم وجهه، وبرقت عيناه.. في تلك اللمحة المجنونة من الزمن، وهو يقف ينظر إليها من فوق، كانت مستعدة للتخلي عن أي شيء لتتمكن من سحب ما قالته.. فوق كل ما قالته، اتهامه بأنه أقل من الطبيعي، كان الإهانة الكبرى.. فما الذي جعلها تتفوه بمثل هذا الكلام الهازيء؟ لا تعرف أبداً من أين جاءتها مثل هذه الأفكار.. الغبي فقط يمكنه أن يفكر بأن ميشال دوكوبيري يمكن أن يكون أعزباً متبتلاً!

شيء ما خرج من شفتيها، لا يشبه الاعتذار التقليدي:

ـ أنا آسفة.. فأنا..

لم يعطها الوقت لتنهي كلامها، وتلاشى صوتها في منتصفه حين اندفعت يداه تمسكان كتفيها، وتجذبانها بقسوة إلى ذراعيه، وبسرعة فائقة تأكدت لها نصف شكوكها.. هناك إحساس مرهف حتى في لمسته.. لم تستطع غوين تجاهله وهو يضمها إليها.

وشدها أكثر.. حتى أن أزراره، وحزامه الجلدي، غرزا في بشرتها الناعمة لدرجة آلمتها وأجفلتها.. لكن إجفالة الألم البائس، مرت دون أن يلاحظها، وامتدت يده إلى عنقها النحيل، يرفع لها رأسها لتلتقي عيناها بعينيه.. لم تكن غوين معتادة على عناق كهذا من قبل.. عمها وزوجته لم يشجعاها مرة لعقد صداقات مع الجنس الآخر، وكانا متزمتين معها أكثر مما كانا مع ابنتهما كريستين.. وكانت دائماً تحاول إرضائهما، بتكريس نفسها لدراستها. في أحلامها لطالما تصورت أن ذراعا رجل حولها، أمر رائع، لكن ميشال دوكوبيري بدد هذا الوهم، ذراعاه حولها قاسيان بشكل لا يصدق، وقد يتسببان بكدمات على أطرافها وهي تتلوى وتشد نفسها بين

ذراعيه بيأس، في محاولات غير ناجحة للخلاص.. وبعجز كامل اضطرت لتحمل عناقه إلى أن يختار أن يتركها.

لكن، وللحظات قبل أن يتركها.. وبشيء من الارتباك الخجل، وعت تجاوباً من جسدها معه، وفي كل عصب منها.. صحيح أنه قد لا يكون يسعى سوى لعقابها، إلا أنها حين أرخى قبضته عنها لم تجد القوة الكافية لدفعه عنها.

أدهشها الاختلاف المفاجيء الملحوظ في تعابير وجهه، شيء من الترقب أرضى الخطوط المتوترة فيه، بينما كان ينظر إلى عينيها المشدوهتين وفمها المرتجف.. وسألها برقة:

ـ ألا زلت على رأيك آنستي؟

ـ رأيي؟ أي رأي؟

ـ أتتعمدين التظاهر بعدم الفهم.. أم تحتاجين إلى المزيد من الإثبات على أنني رجل؟

صوته، على عكسها، كان ناعماً بثقة، وكلماته كانت تحمل إشارة الرضى، وأخذ يتعمد التلاعب بأعصابها الفتية، بخبرة لم يحاول إخفائها، وهو يخفض رأسه نحوها.

لم تستطع غوين الابتعاد عنه، حتى وهي تعي أن عليها مقاومته، بالرغم من ميل لأن تتبع ما يمليه عليها قلبها المتسارع الخفقان.. إنها لم تعد طفلة، وتعرف أن هذا الرجل يعرف هذا. إنها فقط تفتقد الخبرة التي استفاق عليها جسدها فجأة..

سمعته يهمس، وقد اقترب فمه منها، تلامس شفتاه نعومة شعرها الأشقر الحريري:

ـ أنت مبتدئة رائعة.. ويمكنني أن أكون لطيفاً معك صغيرتي، لو دعت الحاجة.

بسرعة، انتزعت نفسها بعيداً عنه، خجلة من تجاوبها. نظرت إليه، وقد ضاع منها الكلام، عيناها الزرقاوان متسعتان.. شعرت أنها خسرت،

وإلى الأبد، أي ادعاء بالكرامة، وهي بغنى عن هذا الإذلال المؤلم، وعن مواصلة زج نفسها في مواقف مريبة ومشينة.

وبعد مكابدة، تمكنت من القول:

- سيدي.. يجب أن تعذرني.. سأعود إلى فندقي.

لمعت أسنانه البيضاء، وكأنه يتمتع بتعابير وجهها المتوترة المتعبة.. وقال لها:

- وأنت يا آنسة.. يجب أن تتوقفي عن القول لي، ما أفعل أو لا أفعل..

- أنا آسفة.. قلت أشياء ليس لي الحق في قولها.

للحظات، ارتجفت رموشها وهي تحس بالاعتذار يخرج دون إرادتها مرتجفاً من بين شفتيها.. ولكن، ما الذي يبقيه منتصباً أمامها مفتوناً بها وعيناه تلمعان وتشعان نوراً مسلطاً عليها تتفحصانها دون أن يفوتهما شيء.

تراجع رأسه إلى الوراء قليلاً، وبعجرفة، وكأنه يتقبل اعتذارها المتواضع على أنه واجب:

- سأعيدك إلى الفندق يا آنستي إذا تلطفت وأخبرتني أين تقيمين؟ فلا فكرة لي عن هذا!

- سأقبل عرضك سيدي.. لقد نسيت أن أسأل عن موعد عودة الباص.. كنت أنوي سؤال اليغرا.

لحق بها إلى خارج الكوخ دون أن يجيب، وأدار المفتاح في القفل قبل أن يدسه في جيبه.. هزة كتفيه وهو يستدير إليها بدت «غالية» أصيلة، تعلمها بوضوح أنه غريب، وليس واحداً من بني قومها.

- كان على اليغرا إعلامك أن عودة الباص غير مضمونة.. لكنها تركتك لتكتشفي هذا بنفسك.. وسيكون من الأفضل لك يا آنسة، أن لا تتوقعي الكثير من شقيقتي.

أهذا تهديد.. أم تحذير؟

أخذت تحدق في وجهه وهو يقود المركبة الثقيلة بخبرة عبر القصب الكثيف.. وأحست كم أنها لا تعرف سوى القليل عن هذا الرجل، الذي

كانت لتوها بين ذراعيه.. إنها تكرهه وتكره كل شيء وكل شخص له علاقة به! بتهور، وجدت نفسها تتخذ عدة قرارات متسرعة.. ما من أحد.. لا اليغرا، ولا هانس أو هانا، يمكن أن يتوقع منها مثل ذلك! لن تتمكن من تحمل البقاء هنا أكثر من هذا.

بينما كانا يهتزان في المركبة المسرعة بقوة على طريق غير مستوية، شعرت بأن لديها عذراً وجيهاً في عدم الرد على ما قاله حول شقيقته، فلا فائدة من مناقشة أي أمر مع ميشال دوكوبيري.. فهو مصمم على رأي اتخذه منذ أمد طويل، وقبل أن تصل.. ولم يغير إصرارها على ما تريد شيئاً مما صمم عليه، بل عزز قناعته بقراره القاضي بإبعاد فيليب عن عائلة أمه.. وهذه الفكرة تضفي عليها حزناً عميقاً..

ودهشت حين سمعته يسألها قبل أن يبلغا الفندق مباشرة:

- والد كريستين.. هل شفي من النوبة القلبية؟

ردت متصلبة:

- ليس تماماً يا سيد!

مع ذلك تابع، ولو بدا على مضض:

- ألم يعودا إلى انكلترا حتى الآن؟

بالتصلب نفسه تمتمت ترد:

- لا ينصحه الأطباء بذلك.. ولا يستطيعان المخاطرة، في الوقت الحاضر.

- لا أفهمك.

تنهدت وتغضن جبينها بالرغم من محاولتها الهدوء:

- إنهما يحبان الإقامة هناك.. ولو أن انكلترا لها تأثير على حالة هانس، فلن يستطيعا تحمل مصاريف العودة.

- فهمت..

شيء محسوب في رده دفعها للنظر إليه في ارتياب مفاجيء، وكأنه يتعمد التطفل على معلومات ترضيه.. لكن كيف يمكن هذا؟

وكأنه قرأ أفكارها وأراد إزالتها من دماغها، فقال مهاجماً:

- تتذمرين من قلة المال يا آنسة.. لكنك تبدين في حالة ممتازة!

- ماذا تعني؟

- العيش هنا.. منذ كم أسبوع؟

- أربعة.

- وليس فندق السيدة ايمز بالرخيص، يكاد يكون في الصف الأول.

ما يقصده أصبح واضحاً.. واقشعرت بشرة غوين بامتعاض غاضب، بينما كان يدخل السيارة إلى موقف السيارات، قبل أن يتوقف تماماً.. فتحت الباب بحدة وقفزت إلى الطريق، ولم يعد يهمها مراقبته لابتعادها الفجائي بحاجبين مرتفعين، ولا عنى لها شيئاً علامات الدهشة والارتياب البادية على السيدة ايمز التي كانت تتقدم نحوهما، وبكل ثقة وعنفوان قالت له:

- شكراً لك يا سيدي.. ما تشير إليه لا شك صحيح.. لكن كن واثقاً أنني لن أزعجك بعد.. وأنني حين أرحل لن أترك أي شك قد يلطخ، ولو من بعيد، اسمك اللامع!

رد متجهماً:

- إلى اللقاء يا آنسة!

ثم رفع يده للسيدة ايمز وقاد سيارته مبتعداً. صاحت السيدة قبل أن يختفي:

- ماذا كنت تفعلين في سيارة السيد دوكويبري؟

عبثاً حاولت غوين إخفاء احمرار خديها.. كانت ترى بوضوح أن المرأة غاضبة لأن ميشال دوكويبري لم يتوقف للكلام معها.. وهي لا ترغب في الحديث عنه، ولا تريد أن تعرف السيدة ايمز معرفتها به أو بأي من عائلته:

- لقد عرض عليّ توصيلي، فقد فاتني الباص.

لكن محاولتها تضليل السيدة ايمز باءت بالفشل.. فعينا المرأة، وفطنتها، الشديدتا الحدة بفعل سنوات من العمل، اخترقتا محاولاتها، وقالت بارتياب:

- ميشال دوكويبري، ليس من عادته التقاط الناس عن الطريق، خاصة فتاة غريبة.

- أؤكد لك سيدة ايمز، أن السيد دوكويبري، لا يهتم بي ولا بأية طريقة.

جزئياً، اقتنعت السيدة بالتركيز في لهجة غوين، وأخذت الشكوك تتلاشى منها، حين أكملت الحديث كان في لهجتها خبث مدهش:

- آترين عزيزتي.. إنه رجل سمعته لا تطمئن مع الجنس اللطيف، وأنا أشعر بطريقة ما، أنني مسؤولة عنكِ.. وما كان لك أن تعرفي هذا بالطبع، حين قبلت عرضه لإيصالك.

- طبعاً، ما كنت أعرف.

استدارت لتبتعد منقبضة المزاج، كان لا بد أن تلاحظ بأن السيدة ايمز تسمح إلى أن ميشال دوكويبري كقاطع طريق، ينتظر مرور ضحية إلى جانب الطريق.. وتساءلت بفضول ما الذي يمكن أن يفهمه من هذا الانطباع المبالغ به؟

في وقت متقدم من ذلك المساء، وصلت رسالة هاتفية من اليغرا، إلا أنها لم تعط اسمها إلا بعد أن رفعت غوين السماعة. للحظات رهيبة، ظنت غوين أن هناك أخبار سيئة من جنوب افريقيا.. لكنها بدلاً من الارتياح، لم تشعر سوى بالغضب لاضطرارها إلى المعاناة على يد واحد آخر من عائلة دوكويبري وسألت ببرود ودون ود:

- ما الأمر؟

اعتذرت اليغرا لما جرى بعد الظهر، ثم أضافت:

- اضطررت للاتصال غوين... حين تعرفين ميشال بشكل أفضل ستعرفين أنه ليس بهذا السوء.

- لا أريد أن أصغي إليك وأنت تتغنين بمدح أخيك.

- أرجوك.. لا تقفلي الخط.. اضطر ميشال للسفر إلى باريس.. ويجب أن لا أراك قبل عودته، كما قال، لكن حين يعود سيدبر أمر المجيء بك إلى هنا إلى المزرعة. إنه مستعد، كما قال، أن يبحث معك أموراً

خاصة، لكنه لم يفصح ما هي تماماً.

ردت غوين متصلبة:

ـ أخشى أن لا أكون هنا.

ـ أوه.. أرجوك عزيزتي! لا ترحلي.. يجب أن لا ترحلي! لا أدري ما قلته له، لكن يبدو أنك أثّرت عليه.. كان يتصرف بغرابة طوال الأمسية، وكان هناك الكثير يشغل تفكيره وقد تكون هذه الفرصة المناسبة لترتيب أمور فيليب.

ـ سأفكر بالأمر..

ودون إعطاء الفتاة فرصة لقول المزيد، أعادت غوين السماعة مكانها.. كلماتها القليلة تعمدت أن تكون مضللة.. فهي لا تنوي الاقتراب على بعد أميال من المزرعة.. إنها تنوي الرحيل في نهاية الأسبوع.. ولو أنها لا تعمل لغادرت في الصباح، لكنها مدينة للسيدة ايمز بنوع من إنذار ترك العمل.

لسوء الحظ، اعتبرت السيدة أن غوين مدينة لها بمدة إنذار أكثر من بضعة أيام.. حين أعلنت مترددة أنها يجب أن تعود إلى لندن على الفور تقريباً، لاقت عدم رضى بارد، وغضبت السيدة ايمز ولم تحاول إخفاء هذا الغضب:

ـ لا أستطيع السماح لك بتركي هكذا.. وليس لديك وظيفة أخرى تذهبين إليها.. يجب أن تبقي حتى نهاية الشهر.

وبهذا الأمر الحازم، صرفت غوين من مكتبها، بتلويح فاصل من يدها..

ربما هي على حق.. كربة عمل، لا بد أن للسيدة ايمز بعض الحقوق. ولديها فندقها تفكر به.. في مثل مركزها لا يمكن أن تخضع لوقائع غير صحيحة يمكن تفنيدها بسهولة.. هزت كتفيها تقول بحزن، مع إدراك بأن لا شيء آخر أمامها يمكن أن تفعله:

ـ حسن جداً سيدة ايمز.

في الوقت الذي بدأت تأمل أن يكون قد نسيها، سمعت شيئاً من ميشال دوكويبري.. وكان ذلك على شكل رسالة صغيرة من باريس.. قال فيها إنه سيعود إلى المزرعة، وسيقابلها في اليوم التالي، والرسالة موقعة بالاختصار نفسه.. دوكويبري. حدقت غوين بالرسالة خائفة، تتساءل بارتباك: ما الذي جعل نبضات قلبها تتسارع لمجرد رؤية خطه الرجولي القاتم وجعلها تشعر وكأنه برز أمامها شخصياً، يواجهها.. لماذا اختار أن يكتب لها؟ بالطبع حين يتصل هاتفياً، لن ترد عليه مباشرة وسيعرف أشخاص آخرون باتصاله. وهذا ما هي مقتنعة تماماً أنه لن يسمح به.

مع ذلك فالرسالة رسالة، ولا شيء يمنعها من الادعاء أنها لم تستلمها.. ولن يضيره أن يكتشف أن ليس الجميع على استعداد لطاعته. ويجب أن يعرف، كما تعرف هي، أن ما من شيء بقي بينهما للكلام عنه، قطعاً.

طوال ذلك النهار، كانت ما تزال واثقة من قدرتها على المقاومة، فما من شيء يضطرها إلى تنفيذ أوامره، إلاّ أنها مع ذلك كانت تكرر طوال النهار سحب الرسالة من جيبها لتقرأها مجدداً حتى كادت تتمزق إلى عدة قطع.

كان من المستحيل، إزاء هذا التصميم، أن تجد نفسها بعد ظهر اليوم التالي، جامدة في مقعد باص مسرع يتهور في طريقها إلى المزرعة.

لحسن الحظ كان موعد راحتها.. وطلبت منها السيدة ايمز أن تعمل، لكنها لأول مرة صممت على الرفض، حتى أنها تجرأت على القول إنها ستغادر قبل ساعة من عادتها.. مما فاجأ السيدة ايمز وأقعدها عن اختلاق العوائق، وهذا أتاح لغوين أن تهرب قبل أن تنهمر عليها أسئلة السيدة ايمز، وكانت غوين تعلم، أنها ما كانت لتقدر على الخلاص لو أن لدى السيدة ايمز أدنى فكرة عن مكان ذهابها.

لم تدرك غوين أنها تبعد كثيراً عن المزرعة، إلا بعد أن أنزلها الباص بوقت طويل.. المسافات في مثل هذه البراري، كما أدركت، خدّاعة. في أول زيارة لها إلى هنا كانت في سيارة مستأجرة، وبدا لها أنها وصلت المزرعة

بسرعة.. لكنها الآن تجد اتساع هذه السهول مخيفاً، حجمها جعلها تبدو كنقطة صغيرة في منطقة لا حدود لها من القصب والماء.

كانت الشمس حارة إلى درجة الإزعاج.. ومعها كانت الريح الشمالية الجافة، الموسمية، تهب.. وهي التي أزعجت غوين أكثر من الحرّ. لحسن الحظ كانت الطريق الوعرة، واضحة المعالم، ولا يُمكن أن تضيع، لكن مع كل خطوة، كانت تقتنع أكثر فأكثر أنها مجنونة لمجرد التفكير بالمجيء إلى هنا. التفكير بميشال دوكويبري ملأها بارتباك مؤلم، واقتناع متناهي بضعفها أمامه.

التوى أحد كعبيها بشكل سيء، والتصق فستانها القطني ببشرتها الرطبة، قبل وقت طويل من وصولها إلى منزل المزرعة.. الجهد الإضافي لصعود الدرجات جعلها تحس بالغرابة.. قد لا يكون ميشال دوكويبري هنا، وستضطر للانتظار في المطبخ الدافىء إلى أن يقرر الظهور.. لقد أصبحت تعرفه بما يكفي للتكهن كيف سيعاملها.

قرعت غوين الباب، وعلى عكس توقعاتها، انفتح في الحال، لتطل منه شابة سمراء حلوة الطلة.. حدثتها غوين بالفرنسية، متصورة أن هذا أسرع، وكوفئت ببسمة سريعة، وهزت الشابة رأسها بعد سؤال غوين عن السيد دوكويبري:

ـ آه.. أجل يا آنستي.. لقد فكر أنك ستأتين إلى هنا.. وسآخذك إليه فوراً.. اسمي جانيت.

ـ لكن لماذا لا آتي إلى هنا؟ ألا يسكن المكان؟

هزت جانيت رأسها ذا الشعر الأسود نفياً، وأشارت إليها لتلحق بها.. وكان من الصعب أن تجادلها في طقس حرارته مرتفعة، وهي تحس بما تحس به.. وكل ما استطاعته، هو العودة للسير فوق السلم الحجري، ولم تكن المرة الأولى هذا اليوم الذي تندم فيه لأنها لم تأتِ بالسيارة. كان بإمكانها استئجارها بسهولة، لولا أن فكرة التوفير كانت قد استحوذت على عقلها.

عند أسفل السلم، توقفت جانيت، تنظر بارتياب إلى الخلف من فوق

كتفها إلى وجه غوين الشاحب، ثم، وكأنما قررت أن كل الإنكليزيات يبدين كالبشع الناعس، تابعت طريقها حول زاوية البناء، متجهة إلى دغلة أشجار على بعد قليل.. هناك لاحظت غوين وجود أشجار الموز، الدرداء، وبعض الأشجار المائية، كلها مليئة بالأوراق. عبر الأشجار، وهما تقتربان، لمحت منزلاً.. عريضاً، منخفضاً مدهوناً بدهان أبيض ناصع نظيف.. قابع وسط حدائق غنّاء مليئة بالأزهار، مرة أخرى، بتناقض مباشر مع الريف الأجرد من حولهم.

وجدت غوين نفسها ترفرف دهشة حين دخلت من الباب الأمامي الضخم المهيب.. كان الداخل قرميدياً بارداً، وبينما أشارت جانيت لها تدلها إلى غرفة الجلوس، لاحظت الأثاث الفرنسي العائد للقرن الثامن عشر، والبورسلان الصيني، وسجاد سمرقند.. وتاقت فجأة لأن تغرق في إحدى الصوفات العميقة المغطاة بالفرو. فالفخامة المثيرة كانت تناديها بشكل لا يقاوم، ولم تستطع البقاء واقفة على قدميها إلا بجهد مركز.. وقالت جانيت:

ـ سأذهب الآن أفتش عن السيد ميشال.

لكن غوين بالكاد سمعتها تخرج، وأجفلت بعد لحظات حين وجدته واقفاً إلى جانبها.

قال بنعومة ونظرته تراقبها عن كثب، وصوته جاف.. وكأنه لم يشك لحظة واحدة أنها لن تأتي:

ـ إذن.. وصلتِ.

للحظات لم ترد.. وأحست بحساسية بالغة، فهي تعرف تماماً عدم جدوى نكران قدرة هذا الرجل على جرح المشاعر وزعزعة الثقة بالنفس.. سعت لأن تبقي وجهها في الظل، كي لا يقرأ الرجفة التي انتابتها وحاولت أن تلوّن لسانها ببعض من سخريته:

ـ لديك الدليل أمام عينيك يا سيدي.. لكنني أعتقد أنني كنت حمقاء جداً بمجيئي..

قاطعها فجأة:

ـ هذا، آنسة كرايجر، يبقى أمامنا لنرى صحته.. وأنا بالمقابل قد أكون نادماً لأنني دعوتك.. لكن ما إن ترحلي.. يجب أن أكون متأكداً أنني تخلصت منك إلى الأبد.. فأنا لا أنوي، في يوم ما، أن يؤنبني ضميري على خطأ اقترفته.

لم تشعر سوى بالسخرية مما قاله:

ـ من المهم إعلامي بأن لك ضمير، سيدي، مهما كانت طريقة عمله. لكن أرجو أن لا يكون ذلك هو السبب الوحيد لجرّي إلى هنا كل هذه المسافة!

حين تفكر بكل الأميال التي سارتها في الشمس الحارقة، تتمنى بسرور لو تضربه.

هز كتفيه، غير مهتم بأي شيء عانته.. وانحنى قليلاً:

ـ آسف يا آنسة لما سببته لك من عناء. لكنني وصلت لتوي من باريس، بعد تأخر لم أستطع تجنبه.. في الواقع كنت على وشك الاتصال بفندقك لأقول لك إنني سأرسل لك سيارة، في الوقت الذي قالت لي فيه جانيت إنك هنا.. وأنا أعرف بالطبع، أن لديك سيارتك، وأوافق معك أنها مسافة بعيدة، لكن بكل تأكيد لم يكن لديك شيء آخر تفعلينه.

تجاهلت كلامه بصعوبة، لا تريد أن يتشفى بها لو أعلمته عن طول المسافة التي مشتها على أقدامها. كان قد خاطبها باسمها الأصيل، لكنه عاد بسرعة إلى مناداتها بآنسة، مما يعني أنه يصدق نصف قصتها.. كل شيء في هذا الرجل، ودون سبب ظاهر، أخذ يبدو شخصياً! هذا لقاءهما الثالث فقط، مع ذلك يبدو أنه قادر على جرحها بطريقة عميقة مزعجة.

دارت مشاعر غوين المشتتة في دوامة.. وفي غمرة خوف خفيّ غير واع، تمنت لو أنها تتمكن من الهرب منه.. لكن مستقبل فيليب يجب أن

يحث بشكل ملائم.. توسلت إليه بلهجة ساخطة:

ـ أرجوك.. لماذا أردت رؤيتي.. بالضبط؟

* * *

٤ ـ لا تقاومي!

سؤال غوين، تأرجح بينهما متردداً لعدة لحظات قبل أن يرد ميشال عليه:

ـ يجب أن تعرفي يا آنسة، أنني أريد رؤيتك لسبب وحيد لا غير، لأجل فيليب!

أجفلت غوين، والحذر ما زال يتملكها.. ففي صوته عجرفة من الصعب استيعابها.. هل اعتقد أنها كانت تأمل أن تكون دعوته لسبب آخر؟ أيظنها كانت تتوقع اعتذاراً عن تصرفه الأخرق معها يوم التقيا قرب البحيرة؟ إنها تعرف بالغريزة أن رجلاً مثله، لا يمكن أن يعتذر لمجرد معانقة فتاة، ولا حتى للطريقة التي استخدمها معها.

ـ أنا مدركة تماماً يا سيد أن لا سبب غير فيليب.. مع أنك منذ فترة بسيطة رفضت النقاش عنه. لكنني ببساطة أشعر بالفضول لتغييرك قرارك.

ـ دعيني أوضح الأمر.. لقد حكمتِ عليَّ مسبقاً بالقساوة، وقبل وقت طويل من حصول ما حصل، لكنني ألومك على أن طريقة قدومك كانت بعيدة جداً عن الاستقامة.. وإذا كنت من تقولين، ولدي الآن أكثر من سبب للتصديق، فأظنك مدينة لي ببعض الشرح، حول لماذا جئت أول يوم، ولماذا اخترت ستار السرّية.

بجو من اليأس المتهور، تجنبت إعطاء رد مباشر، فهي لا تزال مترددة في كشف أمر البغرا.

ـ أكان اختلف شيء؟ فلطالما رفضت رؤيتي.

ـ ربما لا تدركين أن ثمة محاولة لخطف فيليب قد جرت بالطريقة ذاتها. امرأة، إنما ليست إنكليزية، اقتحمت المنزل حين كان عمره لا يتجاوز الأسابيع.. والفضل يرجع ليقظة جانيت، التي أفشلت المحاولة!

همست، والصدمة تتملكها:

ـ لكن.. بكل تأكيد..

قاطعها دون اعتذار:

ـ ربما يمكنك تصور كيف شعرت حين ظهرتِ!

ـ لكنني قلت لك.. وما كان عليك سوى سؤال البغرا.

هز رأسه متجهماً:

ـ أجل.. في الواقع تشاورت مع أختي.. لكنها كانت متكتمة بقدرك تماماً.

جلست غوين بعجز مع أنه لم يطلب منها الجلوس، فقد هدّها ما اعتبرته إهمالاً مقصوداً.. وكانت ترغب بالرغم من إعيائها أن تبقى واقفة.. لكنها شعرت فجأة أن ساقيها عاجزتان عن حملها.. وهمست:

ـ أرجوك.. يجب أن أعود إلى الفندق.. أحس بالألم.. رأسي..

لبرهة، لم يَعِرْ اهتماماً لتوسلها، وعندما ألقى نظرة متفحصة ساخرة على وجهها المتقصد بالعرق قال:

ـ أعتقد أن هذا جزء من تمثيلية.. فبعد أن أثبت هويتك تدّعين أنك مريضة، ربما على أمل اكتساب دعوة للبقاء هنا إلى أن تستعيدي عافيتك؟

كانت تشعر أن المكان كله يدور بها بانتظام متسارع والألوان تتراقص برتابة مملة، ولم تعد تستطيع رؤية التكشيرة التي كست وجهه، لكنها شعرت بها.. كيف يمكنه تصور أنها تأمل في البقاء هنا وهي مستعدة للتخلي عن أي شيء لتتمكن من الوقوف على قدميها والخروج.. وأن لا تعود أبداً! حتى أنها لم تعد تجد القوة الكافية لإكمال هجومها الكلامي.. وخرجت منها الكلمات التالية متقطعة بعد موجة أخرى من الغثيان:

فراشة المحبة
www.liilas.com

- أرجوك.. يا سيدي.. الأفضل أن ترسل معي من يوصلني إلى الفندق.. وإلا لن أكون مسؤولة عما سيحصل لي.. ربما تكون الشمس هي السبب!

- الشمس؟ وكيف يمكن حدوث هذا؟

لكن غوين كانت قد تجاوزت مرحلة الرد، ودون أن تتمكن من منع نفسها، غاصت إلى الوراء تترك نفسها تغرق في عمق الصوفا، رأسها يميل إلى جانب واحد، وجهها ببياض الثلج فوق المخمل الأخضر اللون.

- يا إلهي!

بخطوة واحدة أصبح قربها، ليمسك معصمها بين أصابعه بسرعة، ويحجب برأسه النور عنها، وضع أصابعه على نبضها.. وكرر:

- يا إلهي! ماذا فعلت بنفسكِ؟

- سرت لمسافة بعيدة.. كما أظن.. أرجوك.. ألا يمكن أن تعيدني فقط إلى بيتي!

- لا.. فمن الواضح، بالرغم من أن فندق السيدة ايمز مكان جيد، إلا أن جوه لا يناسبكِ.. تبدين وكأن نسيماً يمكنه الإطاحة بك.. متى تناولت الطعام آخر مرة؟

تمتمت، خائفة من الكلام كي لا يغلبها القيء:

- هذا الصباح.. سأكون على ما يرام يا سيدي.. لو أنك تفعل ما طلبته منك.

- ومن سيعتني بك هناك؟

تجاهلت التلميح المتوحش في صوته، كما أملت أن لا تكون سمعته ساخر لدرجة أنها ستبكي.. لماذا لا يصغي إليها؟ تعبير وجهه وليس مضطراً أن يفعل غير هذا؟ لماذا لا يرميها خارجاً وهو لا يربطه واجب بها،

فجأة أصبح في يده كأس زجاجي، وأحست بنفسها ترتفع لتستند إلى جسده القاسي، وأجبرها على شرب محتويات الكأس، بينما كانت جانيت

تنظر إليها. يده كانت تسند رأسها من الخلف بثبات، وطعم الحامض اللاذع أحرق شفتيها، مما جعلها تشهق.. حاولت أن تبعد رأسها فانسكب حرير شعرها الناعم الأشقر على يده، وأحست بالصدمة حتى وهي مريضة، فاندفعت غريزياً لمقاومته.

كانت كطفلة صغيرة تتصارع مع شخص يملك القوة والخبرة.. وسيطر على مقاومتها الواهنة، بمجرد ضغط ذراعه على كتفيها، بينما كان يعطي التعليمات بسرعة لجانيت:

- يبدو أن الآنسة غوين تعاني من الإرهاق إضافة إلى ضربة شمس.. سنضعها في السرير ونرى كيف ستكون في الصباح.. أظن الغرفة الزرقاء تناسبها.

لمست صدغها بيدها، وأجفلت ألماً.. كان صدغها ينبضان بشكل بغيض، ويحترقان حرارة، وشعرت بالأسى على نفسها.

سمعته يقول آمراً، بصوت حازم، وكأن تمتماتها الغامضة بالاحتجاج أثارته بشكل لا يحتمل:

- توقفي عن المقاومة.. مررت بيوم متعب، وأرى أنه لم ينتهِ بعد.. تعالي.

أهي واهمة أم أن هناك فعلاً شيء من الرقة في صوته حين تلفظ بالكلمة الأخيرة؟ أم أن الرقة كانت في ذراعيه حين رفعها؟ حتى وهي تُحمل، عاد إليها الدوّار الرهيب، ووجدت نفسها تتعلق به بألمٍ مكبوت.. مرتاحة لنعومة بذلته الأنيقة على خدها المحترق.

سمعته يتكلم مجدداً، لكن بفرنسية سريعة لم تستطع فهمها بعد أن نادى على جانيت.. تنبهت بصعوبة أن المرأة كانت تصعد السلم معهما، وكانت تؤكد لميشال أنها وجدت ثوب نوم مناسب للآنسة غوين، وستساعدها لتدخل الفراش. ثم قال بخفة، وهو يدخل غرفة النوم ويضعها بحذر فوق الملاءات الباردة:

- لا تجادلي يا غوين.. فلستِ في حالة تسمح لكِ بذلك.. ستحسين

عما قريب بارتياح أكبر إذا تركت كل شيء لجانيت.

حين أبعد ذراعيه عنها.. أحست غوين بالخسارة، وتمسكت أصابعها دون وعي بكمه وكأنما لتمنعه، فثبّت نظرته عليها بوجه متجهم لملاحظته مدى بياض شحوبها المماثل للون الوسادة تقريباً. وقال:

-سأعود.. بعد لحظات.

وأبعد يدها النحيلة عنه.

بالكاد كانت قد استراحت بين الأغطية حين عاد، وفي يده كوب ماء وقرصين من الدواء.

-قرصان من هذا سيمكنانك من نوم مريح.

شعرت غوين بخجل عاجز لتجد نفسها تخضع بضعف لتعليماته الحازمة. ابتلعت القرصين، تواقة للراحة والسبات الذي قد يأتيان به، كي لا تعود ترى كيف أن نظرته الباردة تمر فوقها مقيّمة.

كان من المؤلم أن تتكلم عبر الألم الذي يضج في رأسها، لكنها تمكنت من القول بصوت أجش:

-ربما بعد ساعة على الأرجح، سأصبح على ما يرام.. على الأقل بما يكفي لأعود إلى الفندق.. ستتساءل السيدة ايمز عن سبب غيابي.. ربما تتلطف جانيت وتوقظني بعد ساعة؟

رد ميشال دوكوبيري:

-لن تذهبي إلى أي مكان هذه الليلة. أما بالنسبة للسيدة ايمز، سأتأكد شخصياً من إعلامها عن مكان وجودك.. ومن الطبيعي أن تقلق لفقدان أحد نزلائها، لكن المسألة سهلة حين ألتقط سماعة الهاتف، وسأفعل هذا على الفور، بإمكانك الراحة الآن يا آنسة.

حدقت عينا غوين، الكبيرتين جداً على وجهها الصغير، في وجه ميشال بخوف. لا يجب أن يتصل بالسيدة ايمز.. ويجب أن تجد الكلمات المناسبة لمنعه.. لكن الأقراص المنومة كانت قد بدأت عملها، فأطبقت جفنيها. وكان في رأسها خطة مبهمة عما يجب أن تفعل، يجب أن تطلب من جانيت

البحث عن اليغرا.. ويجب أن تطلب من اليغرا أن تمنع أخاها من الاتصال بالسيدة ايمز.. يجب أن.. لكن مهما كان ما يجب عليها.. لم تعد غوين تعرفه.. بالرغم من كل جهودها للبقاء مستيقظة، سيطر النوم عليها.

كانت الشمس مشرقة حين استيقاظها، ولدهشتها وجدت اليغرا تجلس على طرف السرير، تنظر إليها مستغرقة في التفكير. صاحت الفتاة حين لمحت غوين عينيها:

-أوه.. عظيم! ظننتك لن تستيقظي أبداً. أتعرفين كم الساعة الآن؟ إنها بعد منتصف النهار يا عزيزتي.. نمت تقريباً أربعاً وعشرين ساعة.

للحظات لم تستطع غوين تذكر شيء، ولم يكن لديها أية فكرة عن مكان وجودها، أو عن ماذا تتحدث اليغرا؟ ولكن سرعان ما عاد كل شيء إلى ذاكرتها.. الطريقة المذلة التي تهاوت فيها بين ذراعي ميشال. وكيف تجاهل مقاومتها وحملها إلى هنا، وأعطاها دون شفقة أقراصاً منومة على الأقل، وفي ضوء انزعاجها المتصاعد، بدا لها عمله صائباً. تحسست رأسها بقلق وأصابع مستكشفة.. الألم لا زال هناك، لكن بشكل خفيف أما الإحساس بالغثيان فقد اختفى. مع ذلك كانت لا زالت تشعر بالإرهاق بالرغم من نومها الطويل.. ماذا قالت اليغرا لتوها.. اليوم كله؟

بالطبع لا..! حاولت النهوض، بينما راقبت اليغرا محاولتها باهتمام قلق، ثم قالت بدهشة:

-ميشال على حق.. أنت فعلاً جذابة حين تكونين على طبيعتك.. ثوب النوم هذا يا عزيزتي، لا أذكر أنك ارتديت مثله من قبل. حتى فستانك القطني يبدو.. كيف تقولين.. قديم الطراز.

وهي تستوعب ما عرفت أنه ملاحظة ميشال دوكوبيري عنها، شعرت غوين باحمرار خديها، وبإرهاق من تصاعد خوفها، اتكأت مجدداً على الوسادة، تنظر إلى الثوب الساتان الناعم الذي أشارت إليه اليغرا كثوب نوم، وانتبهت إلى أنه يكشف مفاتن جسدها، وتملكها خجل شديد من اعتقادها بأن ميشال قد شاهدها ترتديه حين وضعها في السرير، حاولت استبعاد هذه

الفكرة.. ابتلعت غصة متوترة في حلقها، ترافقها رجفة غريبة.

- ثوب النوم هذا، اليغرا.. هو لك دون شك.. فأنا لم أكن قادرة يوماً على تحمل ثمن الثياب الغالية.. ثم، لم يكن من المهم يوماً لي ما أرتدي من ثياب.. كل ما كنت أسعى إليه أن أكون مرتبة.

- وهذا في مثل عمرك، لم يكن شيئاً تفتخرين به آنسة كرايجر.

من خلال ضحكة اليغرا، ارتفعت عينا غوين لتلتقيا بعيني ميشال دوكوبيري وهو واقف في الباب، وعلقت أنفاسها بصعوبة في حلقها..

كان هذا الصباح يرتدي بنطلوناً فاخراً عاجي اللون، وقميص حريري ناعم، ربطة عنق تلتف بأناقة حول عنقه، وصدمت مجدداً بوجوده المتألق، والحضور الرجولي الواضح فيه.. ارتجفت بعجز.. لقد دعتها غريزتها، منذ أول لقاء، لأن تكون حذرة.. لكن، ما نوع الدفاع الذي تملكه فتاة بمواجهة مثل هذه الشخصية المهيمنة؟ مع كل هذا حاولت حين وجدت صوتها أن تطمئن نفسها قليلاً:

- لا أظن أن لك الحق في انتقاد مظهري سيد دوكوبيري!

دخل إلى الغرفة يقول بلطف:

- هذا إذا كانت الظروف عادية.. لكن يجب أن تعترفي أن الظروف منذ وصولك بعيدة عن أن تكون طبيعية.

أضافت اليغرا قبل أن تتمكن غوين من الرد:

- وهذا ما يعطيني ترخيصاً محدداً..

لكن ميشال قاطعها محذراً:

- هذا يكفي منك يا عزيزتي.

واستدار إلى الفتاة في السرير، يتفحصها بإمعان، وانتقلت عيناه دون عجلة من خصلات شعرها الأشقر المشعث إلى حيث يلتصق القماش الرقيق الشفاف على كتفيها المستديرين. وبرز في عمق عينيه لمعان غريب، لاحظته غوين من قبل.. لكنه كان كافياً لبدء خفقان قلبها بشدة في ضلوعها، وأن يجعل الدماء تتصاعد راكضة في جسدها.. وجاءت بلون أحمر قانٍ إلى

خديها اللذين ما زالا فاقدين للون، مع إحساس مجنون بما يمثله هذا الرجل من استفزاز لما له من تأثير عليها يحرك لديها دفاعاً غريزياً لتجمع أطراف الأغطية حولها بشدة.

حاولت رفع عينيها لتنظر إليه بثبات، لكنها وجدت عيناه الخضراوتان تنظران إليها، وذلك اللمعان في عمقهما جعلها تضطرب مجدداً.. حتى البسمة التي لاحت على شفتيه لم تكن مرحة، بل كان فيها بعض الخبث، شريرة بشكل غريب، وهذا ما أسهم في استمرار نبضاتها السريعة.

في داخلها، تحركت رغبة لتنهض من السرير، إلاّ أن ساقيها وكأنهما مكبلتين فيه، ودماغها مشوش وعاجز عن إعطاء توجيهات واضحة.. وسارعت اليغرا لتقوم بما أمرها باندفاع حلو بريء.. فيما بين الاثنين، لم يكن لديها أمل في النجاة إذا لم تكن حذرة!

تدبرت اليغرا لها سترة الفراش، وتراجعت تبتسم بسمة تصورت أنها تشجيعية، لكنها بسمة لن تتمكن غوين من التجاوب معها.. فهي لم تنسَ بعد أنها أنانية وقاسية مثل أخيها.. أوَ ليست هي السبب في كل هذه المتاعب، وأنها هي التي تخلت عنها وتركتها لتواجه غطرسة ميشال وحيدة؟

دون كلمة، حدقت غوين إلى يديها، بينما كان ميشال يجرّ كرسياً إلى جانبها.. ثم سأل:

- أتشعرين بالتحسن الآن غوين؟

ردت على مضض، غير واثقة ما إذا كان يشير إلى صمتها أم إلى سترة الفراش.

- لست واثقة.. أظن أنه يجب أن أكون أفضل مما أنا عليه لأنهض من السرير.

هز رأسه:

- بعد دقائق ستجيئك جانيت بغداء خفيف، وتسوي لك الفراش، ثم يجب أن تكملي راحتك حتى المساء.. عندها فقط، وإذا أحسست بالصحة الكافية، بإمكانك مغادرة السرير، ربما لتناول العشاء.

ـ لا يمكنك إبقائي سجينة هنا!

ابتسامته كانت ساخرة، وهو يتطلع إلى الغرفة الفاتنة:

ـ لا؟ هناك نساء يتمنعن بالسجن داخل غرفة نوم، عزيزتي.. لكنني أعدك أن تتمكني من النزول لوجبة المساء، إذا وعدتني بالمقابل أن تفعلي ما أقوله لك.

ـ أنا لست عاجزة.. ولا أستطيع تخمين سبب رغبتك في أن أكون عاجزة يا سيد!

صحح لها بلطف حازم:

ـ اسمي ميشال.. خاصة وأنت الآن ضيفتي.

بللت شفتها، ثم عضتها بقسوة.

ـ لا أستطيع أن أصدق..

أكمل لها بسرعة ما كانت تنوي قوله:

ـ... أن يتمكن النمر من تغيير خطوط جلده بسرعة؟

ـ كنت سأقول شيئاً عن تغيير اللهجة.. فمنذ أيام قليلة كنت تنصحني بترك البلاد.

ـ ليس من حق المرأة وحدها أن تغير رأيها دائماً، ثم إنني لا أقترح عليك البقاء الدائم.. ربما لبضعة أسابيع، كي تتعرفي جيداً على ابن أختك. وبما أنك ابنة عم زوجة أخي، سيبدو غريباً لو أننا استمرينا نخاطب بعضنا بطريقة رسمية. ألم تلاحظي كيف بدأت أناديك غوين؟

تجاهلت كلامه متعمدة، بكل تأكيد ليس بالرجل الذي يقلقه رأي أصدقائه فيه.. وقالت بحدة:

ـ أنا واثقة أنك قادر على تحمل هذا الاحتمال.. أضف إلى هذا أنني لست حرة للبقاء حتى ولو رغبت على الأقل، ليس قبل نهاية الشهر.

قابل هذا الغموض برفع حاجبيه، وأحست غوين مجدداً بالدم يغزو وجهها، فرفعت يداً لتخفيه، وانخفضت عينيها بسرعة كي لا تقابل عينيه. وقال:

ـ لست مضطرة للشرح.. أترين.. لقد ذهبت إلى الفندق بنفسي ليلة أمس، وتحدثت مع أحد الموظفين قبل استشارة السيدة ايمز.

صدمت غوين بشدة ولم تستطع سوى أن تقول مشدوهة:

ـ السيدة ايمز؟

رد بهدوء:

ـ أجل.. لكن، كما قلت لكِ، قبل أن أكلمها تحدثت إلى السكرتيرة، التي لم تتردد في الرد على أسئلتي.

سألت ببؤس حقيقي:

ـ تعني أنك خدعتها لتبحث معها شؤوني الخاصة!

نظرت إليه، مخاوفها لم تكن غير مبررة، حين استقام عاد إلى وحشيته السابقة:

ـ أكنتِ تسعين إلى إذلالي بالعمل كعبدة في ذلك المكان؟

كلماته القاسية لذعتها وآلمتها، وحركت الألم في رأسها مجدداً. ومع أن وجهها عاد إلى الشحوب الشديد مجدداً، إلا أنه لم يكن في وضع يلاحظ هذا.. وشهقت صائحة:

ـ أنت سخيف تماماً! لن أبقى هنا لتهينني! أنا لست.. كما دعوتني لتوك!

ـ عجباً.. بدوت لي كعبدة يوم كنا في الكوخ.

أحست غوين نفسها تبرد ثم تسخن مداورة وهي تقرأ ما يفكر به. فجأة تلاشت الحدة من نظرته وكأنه تعمد كبح نفسه، وأمال رأسه قليلاً:

ـ أعتذو يا آنسة غوين.. لكن لماذا فعلتِ هذا! أمن أجل الإقامة! أم المال؟

ـ لا.. لا.. بالطبع لا!

فسارع يقول:

ـ أوه.. بلى.. طبعاً! ألم أسمعك تقولين إن التلميذ عادة ينقصه المال لشراء الثياب؟ السكرتيرة قالت إن هذه هي وظيفتك الثانية فقط.. ولم يكن

معك مال!

ـ لقد بقيت لأكتسب خبرة . .

ـ لا تكوني عنيدة . . لن تستطيعي خداعي بسهولة . . كنت ترغبين في الرحيل نهاية الأسبوع، كما قيل لي، لكن السيدة ايمز أجبرتك على البقاء . . تلك الغرفة التي تنامين فيها مجرد مخزن مربع، ونافذة تشبه الصندوق . . وكل تلك القطعان من الأطفال المتطلبين! لا عجب إذن أن تعاني من الإرهاق.

ـ وأخسر وظيفتي . . ! أنت لا تفهم . . قد يمر وقت طويل قبل أن أجد عملاً آخر . . أظن أنك كنت متهوراً يا سيد!

ـ إذا كان الأمر هكذا . . فقد بدا لي أنه لصالحك، أنك مصممة على رؤية ابن أختك، حتى أنك كنت مستعدة لتحمل أي شيء لا يناسبك . . ومثل هذه التضحية لا يجب أن تمر دون مكافأة.

شدت أصابعها على راحتها المبللة بالعرق، وسألت عاصفة، دون أن تعي ما في لهجته من رقة:

ـ وما الذي كنت تفكر فيه؟

نظر إليها مفكراً دون عجلة، ثم وقف فجأة، وكأنما امتقاع لونها وارتفاع توترها، حذراه أنها لم تستعد بعد عافيتها.

ـ يجب أن أكرر لكِ لا داعي للقلق بعد الآن لقد رتبت كل شيء مع السيدة ايمز . . ولن تعودي إلى الفندق . . لم تعد بحاجة إلى خدماتك، وستدفع لك راتبك حتى آخر الشهر . ولقد وضبت لك جانيت ملابسك التي جمعتها لك السكرتيرة مشكورة من غرفتك، ولا أنصحك بأن تجادلي هذا الترتيب . الآن . . كل ما عليك فعله، هو أن تنسي كل شيء وترتاحي . . ربما في الغد، يمكنك التخطيط لما تبقى من إقامتك هنا.

فيما بعد، ألقت غوين اللوم الكامل على استمرار إرهاقها . . والسبات العميق الذي لم تستطع تخليص نفسها منه قبل اليوم التالي بدءاً من موعد تناولها للغداء الخفيف الذي وجدت صعوبة في تناوله في اليوم السابق . على

أي حال، فهي هذا الصباح تشعر بأنها بحالة أفضل . . حقاً أفضل، ومع أنها كانت ذاهلة قليلاً حول الوقت، إلا أنها كانت سعيدة بأن رأسها لم يعد يؤلمها، وأن الكسل تركها إلى غير رجعة.

تذكرت ما قاله ميشال حول جلبه لثيابها من الفندق، فتقدمت إلى الخزانة لتجد روبها القديم الشاحب الذي لا يليق حقاً بثوب نوم اليغرا لكنها تنوي على أي حال أن تتخلص من هذا الثوب حال أن تغتسل . تطلعت بخجل إلى الصف الصغير من الملابس التي رتبتها جانيت لها بترتيب عند طرف الخزانة الفاخرة، الفساتين القطنية، التي خاطت معظمها بسرعة بواسطة ماكينة خياطة استعارتها، كانت معلقة، لا خطوط لها ولا زيّ، وهذا أمر لم يقلقها من قبل . قطبت قليلاً، ثم اختارت بنطلون جينز وقميص عادي كانت تلبسهما في لندن خلال نهاية الأسبوع . . فإذا كانت رثاثة ملابسها تستفز ميشال دوكويبري، فلربما لن يطول الوقت ويطلب منها لملمة ثيابها والرحيل . وبينما سيبت لها هذه الفكرة بعض المرح، فقد رافقها شعور مفاجيء بالاكتئاب.

في محاولة للاستفادة من الوقت المحدود لها، فتحت الباب المقابل للذي تعرف أنه يقود إلى الممر، لتجد الحمام، كامل بمغطسه ودوشه . بسرعة خلعت ثياب نومها والروب، وأدارت ماء الدوش، تنظر بأسى إلى المغطس، تتصور رفعة الغطس في مائه المعطر بواحد من صف طويل فاخر من الزجاجات المصفوفة على الرف الزجاجي فوق الجدار المكسو بالمرايا . . من اختار هذه العطور؟ أيمكن أن تكون اليغرا، أم أن امرأة أخرى تركتها هنا؟ امرأة يعرفها سيد المنزل بشكل حميم.

بأعصاب مسترخية، أخذت تنظر عبر رذاذ الماء اللامع للماء الذي كان يتدفق على شعرها وكتفيها قبل أن ينسكب فوق جسدها النحيل، واقشعرت بشرتها بألم للأفكار التي راودتها، وأظلمت عيناها الزرقاوان . . لماذا تفكر الآن بميشال دوكويبري، وبهذه الطريقة؟ إنه رجل يعتبرها دون شك مجرد مزعجة! هذا مستحيل، وتراجع عقلها عن الاعتراف بأنها تحس بهذا منذ يوم

عانقها . . معاملته القاسية لها زادت دون شك من الكراهية التي في قلبها له . .
فلماذا إذن . . التفكير به مع نساء أخريات يأتيها بمثل هذا الألم الحاد؟

أجفلت دون وعي منها وكأنها تلقت صفعة . . وأمسكت ، بجهد بائس لإبعاده عن أفكاره ، بمنشفة سميكة تجفف نفسها بقسوة ، تسعى إلى استعادة جأشها . . إنها الآن في الثانية والعشرين ، وآن الوقت لتكبر قليلاً وتتعلم أن تتعامل مع أمثال ميشال دوكوبيري دون صعوبة .

كانت مرتدية ملابسها ، ترتب غرفتها حين دخلت جانيت ، وصاحت مبتسمة :

ـ آه . . عظيم يا آنسة . . تبدين أفضل حالاً . وعاد اللون إلى خديك . . لقد نمت ونمت حتى خشيت أن لا تستيقظي أبداً . لكن السيد ميشال أكد لي أنك ستستيقظين ، وفي الوقت المناسب .

وتابعت جانيت أن بإمكان الآنسة النزول لتناول الغداء ، إذا أحست أنها أفضل حالاً ، وإلا ، بإمكانها تناوله في الغرفة . . أخذت غوين نفساً عميقاً ، وردت بأنها ستنزل ، لكن عليها أولاً رؤية الآنسة اليغرا .

فجأة علمت غوين أن هذا أمر أساسي لها قبل أن تقابل ميشال مرة أخرى . يجب أن تفهم بعض الأمور جيداً ، فاليغرا هي في الأساس من أصرت عليها بالمجيء إلى هنا ، واليغرا يجب أن تقول لميشال هذا ، وإلا فلن يصدقها . .

أخيراً جاءت اليغرا مقطبة الجبين ، وقالت متجهمة بعد أن حاولت غوين بصبر إقناعها بما تريد منها :

ـ ما هذه المشكلة التي تثيرينها دون طائل غوين . . أيهم جداً من طلب منك المجيء؟ فعلى أي حال الهدف الأساسي كان أن يستقبلك ميشال . . والآن بعد تحقيق هذا الهدف . . لماذا تحاولين توريطي؟ سيكون غاضباً مني لو عرف!

ـ لكن ألا تفهمين؟ يظنني احتلت عليه لأدخل إلى هنا . وأنا مقتنعة ، بالرغم من مساعدته الراهنة لي ، أنه يحتقرني في سره لهذا .

نظرت إليها اليغرا ساخرة :

ـ حقاً غوين . . أمهتمة جداً برأي أخي فيك؟ ألا تظنين أنه يستحق الخداع بعد الطريقة التي عاملك بها؟ ثم ألا تظنين كذلك أنك مدينة لي ببعض الولاء ، وقليل من الصمت؟ فعلى أي حال ، لقد ضحيت بسنتين . . سنتين كاملتين من أهم سنوات عمري . . لأجل طفل ابنة عمك!

هذا صحيح ، وفي وقت يمكن لها أن تشير إلى أن أهل كريستين قد حُرما من حفيدهما ، إلا أن هذا ليس غلطة اليغرا .

بارتباك ، وبصمت مطبق ، راقبت اليغرا تتقدم إلى النافذة ، تتوقف لتنقر بأصابعها على الإطار الخشبي قبل أن تستدير لتواجه غوين ، وتتابع :

ـ أترين . . ميشال يرعبني . . ويجب أن أطيعه . . حين كان روي حياً لم يكن الأمر بهذا السوء . مع أنه أيضاً كان يضطر أن يفعل ما يمليه عليه . كان يضطر للبقاء هنا والعناية بالمزرعة ، بينما يذهب ميشال ليتمتع في باريس مع أصدقائه الصغيرات . . وكنت دائماً أخافه . . ويجب أن تتذكري غوين . . أنني أنا من سيعيش معه بعد ذهابك .

بالرغم من حرارة النهار ، هزت قشعريرة جسد غوين وقالت :

ـ لكنني ظننتك ستذهبين إلى باريس على الفور؟

صفقت اليغرا يديها دليل الأسى :

ـ ابنة عمي جوسلين ، استدعيت إلى نيويورك . . ولسوء الحظ ستبقى هناك لعدة أسابيع .

ـ إذن ليس من الضروري حقاً أن أبقى؟

صاحت اليغرا بإلحاح :

ـ أوه . . بلى . . ضروري! فستعود ، وإذا سار كل شيء على ما يرام هنا . . أتفهمين . . لقد أخبرت السيدة ايمز ميشال أنك مربية أطفال متمرنة ، وهذا ما أثار اهتمامه .

ارتجفت غوين ، تحس ببرد غريب . . إذن هذه هي المعلومات التي دفعته لدعوتها للبقاء ، وليس شخصيتها ، كامرأة :

ـ هكذا إذن . .

وهذا بالطبع ما لا تريده، فهي تكره التفكير بأنه سينظر إليها على ضوء أنها موظفة . . لكن كيف يمكن لها أن تناسب هنا كمربية أطفال؟ أمر يجب أن تفكر فيه، فعدا عن اليغرا، لا شك أن لدى ميشال مساعدة محترفة، الآن فقط بدأت تدرك كم من المستحيل أن تبقى هنا لوحدها .

كانت اليغرا تصيح بصوت مرتفع :

ـ غوين! لقد أرسلتِ بطلبي على وجه السرعة، وما إن أصبحت هنا حتى بدأت تحلمين . . وميشال يكره جداً أن ينتظر أحداً على الغداء . . وأظنك جاهزة؟ مع أنني لست واثقة أن ما ترتدينه سيعجبه . . عزيزتي!

ردت غوين ببرود :

ـ أنا واثقة أنه لن يلاحظ .

الذي حدث، أن ميشال لم يصل للغداء . وقالت جانيت إنه استدعي فجأة إلى الجهة الأخرى من المزرعة، وسيتناول الطعام مع الرجال، أكملت وهي تقدّم الوجبة اللذيذة :

ـ دائماً هناك شيء يشغله . . يتصور هؤلاء النواطير الرعاة أنه قادر على حل كل المشاكل .

فيما بعد غادرت اليغرا المنزل لزيارة أصدقاء . . وقالت قبل أن تغادر :

ـ فيليب تناول طعامه، وسيرتاح قليلاً الآن . . لكنني أعتقد أنك ستزورينه فيما بعد .

ما إن وجدت غوين نفسها لوحدها، حتى خرجت إلى الحدائق لتقاوم اندفاعاً لرؤية فيليب فوراً . .

للمرة الأولى منذ وصولها إلى هذه البلاد، شعرت غوين بالوحدة، وكأنها منبوذة في هذه المنطقة البدائية البريّة من العالم . . هل لأنها ما زالت تشعر بالتعب وأنه من الأفضل لها العودة إلى غرفتها؟ لكن بعد أن نامت كثيراً في اليوم السابق، قيلولة أخرى لم تعد تروق لها حقاً، وبالرغم من ازدياد

دفء الشمس، أكملت استكشاف الحدائق، وسرعان ما أشرق وجهها الشاحب وبدأ ينمو اهتمامها بكل ما تراه هناك .

* * *

٥ ـ الحمقاء الصغيرة

كانت الحدائق جميلة جداً.. أكثر مما بدت لها من نافذة غرفتها، فأمضت زهاء ساعة تتنقل بين جنباتها تغمرها سعادة لا يعكر صفوها سوى عدم قدرتها على معرفة أسماء كل تلك الأنواع المتعددة من النباتات والطيور الغنّاء.

كما توقعت، وجدت بركة سباحة متوارية ما بين الأشجار الباسقة وجدران الحديقة الخارجية.. لكن بصعوبة كبيرة وجدت الباب الضيّق الموصل إليها، وما إن وصلت إليها حتى توقفت بذهول.. كانت البركة طويلة عريضة، مرصوفة من الداخل والخارج ببلاط أزرق شفاف يعكس لون الماء، ويتغير عند أقل ارتجاف على السطح إلى أخضر متعدد الدرجات.. على الجانب الآخر للبركة، حيث نقف، كانت غرف الملابس. في خارجها وعلى مسافات متساوية فوق البلاط، كراسٍ عديدة، وطاولات صغيرة.

استعادت غوين أنفاسها، ثم سارت نحو كرسي لتجلس، شعرت فجأة بالتعب، وتشوّقت للاستلقاء على أحد الكراسي الطويلة.. ترددت حين شعرت أن تصرفها هذا قد يعطي الانطباع لمن يراها، بأنها تتصرف وكأنها في منزلها.. قاومت الإغراء، وبقيت حيث هي، لكن حرارة الشمس، والنسمات الناعمة المنسابة ما بين أغصان الشجر، كان لها تأثير المنوّم، وكانت تغط في النوم ساعة وجدها ميشال دوكوبيري.

قفزت غوين مجفلة في جلوسها.. كردة فعل سريعة، تسارعت نبضات

قلبها، تحذرها بطريقة غريبة لا تعرف سرّها. رفعت عينيها إليه، وهو يقف متشامخاً فوقها، قبل أن يجلس دون اكتراث على المقعد المجاور، كل ما قاله كان:

ـ تساءلت ما إذا كنت سأجدك هنا.

اختصاره للكلام، أثار فيها إحساساً بالذنب، فقالت:

ـ أنا آسفة.. قد أكون متطفلة.

هز رأسه بسرعة، وكأنه لم يطق صبراً لمثل هذا الاقتراح.

ـ ظننت جانيت أنك في الحديقة.. إذا أحببت هذا المكان، فابقي فيه على الرحب والسعة.. لكن من الأفضل لك أن تخلدي إلى غرفتك لقيلولة ملائمة أكثر.. ما زلت تبدين هشة.. يا آنسة.

ـ لكنني مرتاحة جداً.

ـ يجب أن تسترخي لعدة أيام.. وإذا لم ترغبي في ملازمة الفراش، تعالي إلى هنا.. غطسة قصيرة في البركة ستفيدك. وستعيد إليك.. ماذا تقولون في بلادكم؟.. الورود إلى خديك.

تمتمت، محاولة إشاحة نظرها عن وجهه الأسمر الوسيم:

ـ شكراً لك.. اليغرا خرجت.. لكنني لم أشعر بالوحدة يا سيدي.. فقد تمتعت بالحديقة.. إنها رائعة حقاً!

ـ هذه البركة بناها أبي.. منذ عدة سنوات، حين كنت طفلاً.. كان روي يتمتع بها، وكذلك كريستين.. أحياناً.

دهشت غوين لإحساسها أن كلماته جلبت لها السعادة لا الألم.. أراحها أن تسمع بأن كريستين كانت سعيدة هنا، وأحست بأنها لا تميل إلى تحدي ميشال في هذه النقطة الآن.

هزت رأسها:

ـ أجل.. كريستين تحب السباحة، وأنا أحبها أيضاً.. وكذلك اليغرا.

ـ لماذا تصرّين دائماً على إدخال اليغرا بيننا، يا آنسة؟ أتعتبرينها نوع من الحماية لكِ؟

www.liilas.com

ـ أظنك تتمتع بإزعاجي بمزاحك كما يبدو، أنت ترغب فقط بالتخلص مني بأية طريقة.. والآن..

ـ أتركين كلامك في منتصف الجملة دائماً غوين؟ أم أنك ببساطة أردت استفزازي؟ ما كنت أظن أن الشجاعة تنقصك. مهما يكن الأمر.

ردت باختصار تحاول إقناعه بفضيلة لم تعد واثقة أنها تملكها.

ـ أعدك سيدي، أن لا تجد هذا عندي.. وأنا واثقة أن مشاعرك لا يمكن أن تستفزّها بضع كلمات مني..

ـ أنا معتاد أن أطاع غوين.. ومن الأفضل أن تتذكري هذا.

ـ تعني أن هذا سيكون أقل ألماً؟

لم تكن تنوي الإشارة إلى حادثة تفضل نسيانها، ولو على حساب كرامتها.. لكن كلامها تسارع منها بتهور..

ـ حسناً؟ افصحي عما في نفسك يا آنسة.

أخذ الدم يغلي في صدغيها، لمجرد التفكير بالأمر، وأحست أن لسانها مشلول، لكنها خافت أن يلاحظ ارتباكها، فرفعت ذقنها متحدية.. كيف يجرؤ على الادعاء أن ليس لديها شيء تتذمر منه؟

ـ في أول زيارة لي إلى هنا، لا بد تتذكر كيف رميتني تقريباً من فوق السلم؟.. تألمت وأصبت بكدمات!

هز كتفيه ساخراً:

ـ صحيح؟ لم ألاحظ هذا.. لكن.. أذكر أنني كنت غاضباً.

ـ كنت غاضباً حقاً؟

طافت عيناه عليها:

ـ مهلك يا آنسة.. أنت حساسة جداً.. وربما يجعلك هذا سريعة الاستجابة.. هناك حساسية مرهفة فيك تثير الشيطان في الرجل.. وإلى حدٍ ما، ما زلت أجد لتصرفي مبرراً.. لكنني لست متوحشاً. وأنا واثق أنني لم أعاملك بخشونة زائدة.. أين هذه الكدمات التي تتكلمين عنها؟

ـ لا زالت بادية بشكل خفيف.

رفعت كم قميصها، إلى حيث بشرتها الندية الناعمة عند أعلى الذراع تحمل علامات شاحبة.

أمعنت عيناه النظر في بشرتها العارية مفكراً، ومع أنه تمتم بصوت منخفض مبدياً أسفه، إلا أنها أحست أنه لم يكن آسفاً، وأن إيلامها، كان أمراً تمتع به، وربما قد يتمتع به بعد، إذا لزم الأمر، وسمعته يضيف، وكأنه يعيد عنها:

ـ يبدو لي أنني مدين لك باعتذار غوين.

وافقت بتحفظ، برودها يشير بوضوح إلى أن اضطرارها لتجاهل الماضي، لا يعني أنها تنساه..

ـ كما تشاء سيدي.. وبما أن وقتي محدود، أريد رؤية فيليب في أسرع وقت ممكن.

ـ أعتقد أنكِ تعجبينني أكثر حين تنسين أن تكوني المربية الرزينة يا عزيزتي! فالكثير من الحلاوة قد يصيب بالتخمة.. ولم تكن كريستين قادرة يوماً على الدفاع عن نفسها كما تفعلين.

أما كان الأفضل لو قال إن كريستين لم تكن من النوع المقاتل؟ كريستين لم تكن متمسكة بتنفيذ ما تريد، إلا أنها عادة، كانت تنجح في الحصول على ما تريد بوسائل أخرى. مع ذلك، فما هو الحق الذي يسمح لميشال دوكوبيري لأن ينتقدها هكذا؟

ـ أنت تنسى سيدي، أنني وكريستين ابتناعم، ولطالما كانت لطيفة.

ـ بكل تأكيد..

كان في صوته تحفظ لا يمت للمشاعر بصلة، ووقف يجذبها معه.. ويكمل:

ـ أتريدين رؤية الطفل؟ سآخذك إليه بنفسي.. لكن، بما أنك ما زلت واهنة القوى وشاحبة، لا أريد منك إرهاق نفسك.. مرة ثانية.. بإمكانك البقاء معه لفترة قصيرة، ثم اذهبي إلى غرفتك للراحة. في الغد، إذا شئت، تقضين معه وقتاً أطول، آنستي.

أجفلت غوين، بعناد، لا تريد أن توافق أنه على حق. أنفاسها كانت ما تزال متقطعة، ونبضات قلبها كانت غريبة وهو يضع أصابعه الفولاذية تحت ذراعها ليقودها من الحديقة. . وأحست كذلك بحاجة متزايدة لمعارضته.

ـ أعدك بالاعتناء بنفسي، لكنني لن أستطيع البقاء في النقاهة إلى الأبد!

لطالما فكرت غوين كيف ستشعر نحو طفل كريستين حين تتعرف إليه. . لا بد أن الأمر كان سيبدو صعباً لولا ما تكنّه من محبة لعموم الأطفال. . وهي ما زالت تذكر أن الطفل الذي رعته في وظيفتها الأولى، لم يشكل لها أية مصاعب. . إلاّ أن ما لم تتوقعه حيال فيليب هو أن تتعلق به من الوهلة الأولى، وكأنها أحد جدّيه أو خالته الحقيقية. فقد أثار دهشتها كيف انخلع قلبها نحوه، ما إن دخلت مع ميشال جناحه ووجدته يبكي. . صراخ بكائه كان مسموعاً لهما وهما يتقدمان في الممر العريض نحو غرفته، وسرعان ما لاحظت التقطيبة القاتمة على وجه ميشال، مع تصاعد البكاء بغضب.

ـ يا إلهي! ألا يمكن أن يكون هناك إحساس بالمسؤولية حين أدير ظهري؟

كان صوته يتصاعد، وبعد نظرة واحدة مرتبكة من فوق رأس غوين، عاد إلى الممر صائحاً بفم متجهم:

ـ جانيت!

لحظات وكانت غوين تحمل الطفل، وباللحظة نفسها جاءت فتاة مذعورة تركض في الممر، تشهق مقطوعة الأنفاس:

ـ آسفة يا سيد دوكوبيري. . لكن جانيت مشغولة جداً في تحضير الطعام، والذي قالت إنه أهم من الصغير. .

قال بحزم، يؤنّب الفتاة:

ـ كلام سخيف. . إذهبي وقولي لجانيت إن الطفل أهم من أي وجبة طعام! سأنزل بنفسي لأكلمها في الحال.

ـ طبعاً سيدي. . سأقول لها سيدي. .

وسرعان ما اختفت راكضة.

استدار ميشال ليرى نظرة غوين المستهجنة، وقال غاضباً:

ـ ما الذي يجري هنا؟ أزيلي هذه النظرة عن وجهك يا آنسة. . فيليب ليس مهملاً، الأمر أن كثيراً من الأيدي ترعاه. . نصفهم يفترض النصف الآخر معه، بينما الواقع أنه غالباً ما يكون وحيداً. يكاد فيليب يصل الثانية من عمره، ولن يضيره أن يبكي قليلاً، لكن قلة الكفاءة تثير أعصابي.

نظرت إليه غوين بهدوء، وفيليب يتعلق بعنقها ملتصقاً. دون أن يعي بعد أنها غريبة، لا يعي سوى الدفء وراحة ذراعيها المنقذة له. . وردت متصلبة:

ـ لم يكن لدي الوقت لأفكر بما قلته سيدي. . فيليب كما تقول، يكاد يكون في سنته الثانية. . لكن الطفل الصغير قد يعاني مزيجاً من الإهمال وشدة العاطفة. . الأطفال في أي عمر كانوا بحاجة إلى الإحساس بالأمان.

رد بوحشية، ودونما إنصاف:

ـ أنا لا أحتاج إلى محاضرة عن نفسيات الأطفال. ولن أسمح بأن يصبح مخنثاً آنستي. . فإذا تلقى الكثير من الدلال فلن ينجح أبداً في حياته!

بكاء فيليب توقف، وكأنما إحتواء غوين الحنون له بدد مخاوفه. . نشوة الانتصار كانت بادية عليها وهي تضمه إلى صدرها، ولم تخفها هذه المرة نظرة ميشال الحادة، لكنها سرعان ما أشاحت نظرها عنه بعدم اكتراث وباتت على ثقة بأنها ستحرز المزيد من التقدم مع هذا الرجل لو عرفت كيف تتعامل معه:

ـ سأبقى معه سيدي. . يبدو أنه بحاجة إلى غيار ملابسه. . وأنا واثقة أنك لن تعترض على هذا؟

ـ لنصف ساعة فقط، يا آنستي. بعدها إذا لم تكوني في غرفتك، سأجيء بنفسي لأوصلك إلى هناك.

سألها ميشال في الأمسية التالية وهما يتناولان المرطبات قبل العشاء:

ـ أتحبين الأطفال؟

ـ لا يمكن أن أكون قد تدربت كمربية أطفال لو أني لا أحبهم.

أطرقت تنظر إلى شرابها، تضع اللوم في ردها الفظ على نقص ثقتها بمظهرها . . كم ستواجه ميشال دوكويبري بشكل أفضل لو أنها كانت أكثر أناقة . . في الفندق لم يبدُ هذا مهماً . . فهناك، وهي لوحدها، بشاعة زيها ساعدتها في أن تبقى غير بارزة . . لكنها الآن تتمنى لو أن لديها فستاناً أجمل مما لديها . فما تلبسه الليلة، كان غلطة فادحة، ولا بد أن هذا الوصف ألطف بكثير مما يفكر به ميشال دوكويبري! الفستان من القطن الخشن، يتجعد كلما جلست، ولونه الأخضر الشاحب لا يناسب أبداً لون بشرتها . . أفضل ما يقال عنه إنه محترم، وحاولت غوين بيأس التمسك بهذا الوصف لطمأنة نفسها، تدفع عنها كل فكرة بثوب أكثر تألقاً .

كانت تعلم جيداً، أن عينا ميشال، كانتا تقدّران بصراحة كلفة كل ما لديها من ثياب، وبقليل من السخط احمرّ وجهها، فهي ليست معتادة على تفرس رجل بها، مع أنها تعرف أن نظرته إليها لها هدف محدد، مجرد فضول لتقييم مظهرها البعيد عن الأناقة . . وهذا ما هي مستعدة لتحمله، لكن دون أن يتكلم عنه بصراحة . . رجل إنكليزي كان سيفعل . . لكن ميشال رجل مختلف . . وسمعته يقول :

ـ من الجيد أن جسدك جميل بشكل طبيعي . . عزيزتي وإلا . . فهذا الفستان . . يا إلهي! من أين حصلت عليه؟

كانت تتوقع تعليقاً أكثر تهذيباً . . واتسعت عيناها تلمعان بالاستياء :

ـ صنعته بنفسي يا سيدي . . قبل مجيئي إلى هنا .

ـ لولا هذا لاخترت شيئاً أكثر أناقة . . أجد صعوبة بأن أبدي الإعجاب بما صنعته . . واضح يا آنسة كرايجر، أنك لست ماهرة في فن صنع الثياب .

ـ لم أدعِ يوماً أني ماهرة . كما وأنني لست مهتمة جداً .

تمايل مستنداً إلى أعقابه، أسنانه البيضاء تلمع، في ابتسامة ناعمة محسوبة، وشك واضح بصحة ما قالته :

ـ إذا كنت، كما تعلنين، واحدة من العائلة، فلا يجبْ أن تمتعضي إذن من ملاحظات صارمة من واحد من أفرادها . . فأنا شخصياً أفضل النساء أن

يكن أنيقات يا عزيزتي، لكن ربما يكون أصدقاؤك الشبان هم من بين ثوار هذه الأيام الذين لا يعتبرون الثياب الفاخرة مهمة؟

ببراءة وقعت في فخه، مع أنها لم تكن تعيه :

ـ ليس لدي صديق شاب خاص . . فقد تفرّغت كلياً للدراسة .

إشتعلت عيناه بتيار الرضى على الفور . . وسأل :

ـ وأنتِ أنهيتِ دراستكِ للتو؟

ـ لا . . بل شغلت وظيفة واحدة قبل قدومي إلى هنا .

لم تدرِ لماذا كانت مترددة بإعطائه هذه المعلومات، إذ تبدو أنها تجعلها أكثر هشاشة أمامه . . ارتشف قليلاً من العصير في كوبه مفكراً، وقال :

ـ تبدين صغيرة جداً يا آنسة؟

ـ أكاد أتمّ الثانية والعشرين .

ـ كبيرة هكذا؟ سامحيني . . تبدين في السابعة عشرة . . وأجد صعوبة في التصديق أنك أكبر من اليغرا . . مع ذلك تنذرين نفسك لسعادة أولاد الآخرين، بينما أنت كبيرة بما يكفي لأن يكون لك عائلة خاصة بك؟

عيناه أضافتا لكلامه أشياء كثيرة، بينما بقي وجهه يحمل القناع المهذب . . أجابت بسطحية وقد أصابها ارتباك مفاجيء :

ـ على الفتاة الحصول على زوج أولاً . . سيدي!

ـ آه . . أنت فتاة قديمة الطراز!

تلوّنت خجلاً، غاضبة من نفسها، وتابع لهجته الساخرة، لكنها رفضت أن تنجرّ أكثر من هذا . . كبحت رداً حاداً كاد أن ينزلق . . قالت :

ـ ابن أخيك طفل طيب يا سيد . . وأتمتع ببقائي معه .

ساد صمت قصير، وأحست بالانزعاج لعدم اهتمامه حين قال :

ـ أجل . . إنه طفل جيد، قانع بما لديه، وأريده أن يبقى هكذا . لكن أقترح أن نترك البحث في هذا الآن . . عزيزتي، فهو وقت يجب وضع الأطفال فيه في الفراش وأن تنساهم مؤقتاً .

من البديهي أن الأمر منطقي في أجواء كهذه حيث يوجد الكثير من الخدم

لرعاية الأطفال . . مع ذلك لم تستطع مقاومة رد سريع :

ـ بعض الآباء لا يتمكنون من رؤية أولادهم سوى في المساء .

ـ أما أنا فسأرغب في رؤية زوجتي . لو كان لي يوماً زوجة ، سأتأكد بنفسي من أن لا يكون لها في هذه الساعة أي تفكير في الأولاد .

موجة مشاعر متعذر وصفها ، طغت على غوين ، مع أنها أجبرت وجهها أن لا يعكسها ، وهمست بعناد :

ـ من المحتمل ، أن لا تشاركك وجهات نظرك .

ـ ستنسى بسرعة مثل هذه الاستقلالية في الرأي ، وتصبح مستسلمة يا آنسة . . وسأعلمها بسرعة أن هذه الساعات يجب التمتع بها بطريقة مختلفة .

ارتجفت غوين بشكل غريب وظاهر تقريباً وهي تنظر إلى أصابعها المرتجفة . . وهذا أمر أصبحت تعي أنه يصيبها في حضوره بصورة مستمرة . وارتابت بأنه يتعمد أن يهز قليلاً حساسيتها الإنكليزية . . لكن ، لا بد أن يكون فيه بعض الدم الإنكليزي ؟ . . وتمتمت تتساءل :

ـ لك أم إنكليزية . . أليس كذلك ؟

وكأنما كان يتبع اتجاه أفكارها ، فقال بنعومة :

ـ عزيزتي الآنسة . . روي واليغرا من لهما مثل هذه النعمة . . ألم تعرفي بأنني شقيقهم لجهة الأب . . فرنسي بالكامل ؟

ـ إذن أنت لا توافق على الإنكليزيات . . بدأت أفهم الآن !

ـ آنستي . .

لكنه صمت ولم يكمل . . ولاحظت غوين لمعان فقدان الصبر في عينيه ، ولم تكن يوماً مسرورة لرؤية اليغرا كما هي الآن . . مع أنها كانت مسرورة لوجودها أكثر من ملاحظاتها . .

ـ تبدين محمّرة منزعجة غوين . . لا تقولي إن ميشال استطاع هز وقارك المتماسك ؟

ازداد احمرار غوين ، حتى وهي تبتسم دون اكتراث . . كانت اليغرا أنيقة الملابس كأخيها تماماً ، مما جعل غوين تعي أكثر من قبل ببشاعة ثوبها ،

وأحست بالراحة ، حين قاطعهما ميشال ليريحها من ضرورة الرد :

ـ أين كنت طوال النهار اليغرا ؟ يبدو أنك نسيت أن لدينا ضيفة ، من المفترض أن نكون أفضل صديقة لك .

ضحكت الفتاة بخفة :

ـ لكنك نسيت ميشال أن ضيفتنا ليست هنا لتراني فقط . وأنت بكل تأكيد لن تحرمني القليل من الحرية التي يمنحني إياها وجود غوين هنا ؟ وإذا كنت تصرّ على المعرفة ، فقد ذهبت لرؤية كورين . . وكان يمكن أن أبقى هناك مدة أطول ، ولقد طلبت كورين مني هذا . . لكنني كنت أعلم أنك ستخلق مشكلة .

أحست غوين أن اليغرا مندهشة لماذا لم يختلق مشكلة الآن . . بل أنه ببساطة هز كتفيه وسأل :

ـ كيف حالها ؟

هزت اليغرا كتفيها بدورها ، وهم يتجهون لتناول العشاء :

ـ أوه . . جيدة جداً .

التفتت إلى غوين تبتسم بخبث :

ـ اهتمت جداً بأمر الآنسة الإنجليزية . . السيدة بينيت متعلقة بميشال جداً حتى أنها تحب أن تعرف كل من يقترب منه . . وأكدت لها يا عزيزتي أن لا تخشى شيئاً . . لكنها صممت على أن تأتي لتراكِ بنفسها .

أجفلت غوين ، غير واثقة من ردة فعلها ، تحس بعيني ميشال على رأسها وهي تجلس ، تتساءل لماذا أصبح قلبها بارداً هكذا لمجرد ذكر كورين بينيت . . قالت اليغرا « سيدة » ، هذا يعني قطعاً أنها متزوجة ؟

أكملت اليغرا تتمتع بالدراما الصغيرة أمامها :

ـ السيدة بينيت أرملة . . لكنها ليست كبيرة في السن عزيزتي ويعجبها ميشال جداً !

قال ميشال بحدة :

ـ هذا يكفي اليغرا . لطالما كانت كورين صديقة طيبة . . لكن ألم أقل

لك من قبل إن «موروني» مكان بعيد جداً لتذهبي إليه لوحدك.

صاحت غاضبة، محاولة تجاهل نظرته الحادة:

- لكنني لم أعد «طفلة» ميشال، ثم إنني حين تعود جوسلين من المحتمل أن أذهب إلى باريس، وهي قطعاً أبعد من موروني.

- من الأفضل لك الاستقرار هنا والزواج من روبير.. كما كنت أصرّ أن تفعلي منذ سنوات.

- أنت تنسى ميشال أنني لم أعد قاصرة، ولست مستعدة لأن أطيعك واستقر مع شخص ممل أبله مثل روبير.. ولا فائدة من أن تنزعج.. فأنت لن تقدر على إجبار الجميع بأن يطيع أوامرك.

تابعت غوين عشاءها دون أن تعي في الواقع ما تأكل، وهي تصغي بغير ارتياح لتبادل الكلام القارس.. كانت سريعة في فهم أن اليغرا تتعمد الإشارة إلى محاولة ميشال إجبار روي على الزواج من إحدى بنات بلده.. لكن أيمكن أن يكون روي حياً الآن لو أطاعه؟ رفعت رأسها لترى أن نظرة ميشال المبهمة، مركزة عليها، وكانت على وشك الرد في هذا السياق، إلا أنه غير رأيه لسبب ما..

قال، ينقل نظره بسرعة إلى أخته:

- لا بأس.. لكن يبدو أنك لن تستطيعي الخلاص من هنا إلى باريس أو إلى أي مكان آخر، في الوقت الحاضر، لذلك أنصحك بالقناعة بهذا لفترة أخرى.

أعطت اليغرا قبولها بالتدريج:

- فقط لفترة قصيرة.. وفي هذه الأثناء، يمكنك أن تعتبر غوين مربية مناسبة لفيليب.. أو الأفضل من هذا، أمامك دائماً كورين المستعدة، والتي إذا طلبت منها بلطف، قد تكون مربية وزوجة في آن واحد.

لماذا علقت تعليقات اليغرا اللاذعة في ذهن غوين طوال الليل؟ حتى حين كانت تستيقظ في فترات متقطعة، كانت لا تزال تفكر فيها. كانت تعلم، من خبرة سابقة، أن اليغرا، حين تريد، يمكن أن تكون طائشة متهورة، مع

ذلك لم تكن لتظنها قادرة على التمادي هكذا مع أخيها. ردة فعل ميشال على تعليقات اليغرا المزعجة لم تكن ظاهرة.. فقد ابتسم فقط، بسخرية سريعة، بسمة تأكدت غوين أنها لم تصل عينيه، بل كانت لأجلها فقط.

كان الوقت مبكراً جداً في اليوم التالي حين قررت غوين أنها لن تستطيع البقاء في السرير.. بسرعة، استحمت، وارتدت قميصاً نظيفاً وبنطلون جينز، سرّحت شعرها المشعث إلى شيء من الترتيب، ولم تزعج نفسها بوضع الماكياج.. لا تبدو أنها بحاجة إلى الماكياج هذا الصباح، كما آمنت بعد تفحصها لإشراقتها، ولأول مرة منذ أيام بدأت تحس أنها على ما يرام، وابتسمت لنفسها في المرآة.. لكن لن يفيدها أن تتعلق بمثل هذه الفخامة، وإلا ستكون عودتها المفاجئة إلى الحياة التي ألفتها، أمر لا يحتمل!

فاجأها ميشال بجلوسه إلى مائدة الفطور حين نزلت. عادة، كما قالت لها جانيت، كان يخرج من المنزل قبل هذا الوقت بكثير. وسألها:

- أتعرفين ركوب الخيل يا آنسة؟

كانت نظرته أكثر إعجاباً من الليل السابق وهو ينظر إلى الجينز المشدود إلى ساقيها.. بارتباك نظرت إليه وهو يطيل مدة صب القهوة. ولسبب مجهول وجدت صعوبة أن تسحب نظرها عنه.. ووبخت نفسها على دهشتها لأنه لا زال كما هو تماماً.. هل توقعت أن تراه قد تغير بين ليلة وضحاها لمجرد أنها اكتشفت أنه ليس نصف إنكليزي؟

كان قد سألها إذا كانت تعرف ركوب الخيل، وكان صمتها يثير أعصابه.. بارتفاع حاجبيه السوداوين، احمرّ وجهها وقالت بسرعة:

- أجل.. أعرف، لكن من الصعب أن أكون ببراعة واحد من الرعاة لديك.

- وهذا شيء يجب أن لا تخجلي منه.. رعاتنا صنف فريد، ولا يمكن لأحد أن يتوقع منك أن تكوني على الفور ببراعتهم.. لكنك ستتعلمين.. جيادنا قد لا تكون ما تعودتِ عليه تماماً، لكنني سأرافقك كبداية، ولن يكون هناك شيء تخافين منه.

ـ شكراً لك.. أؤكد لك أنني لست خائفة.. مع أن جيادكم، كما تقول، قد تكون مما لم أعتد عليه.. تعلمت الركوب في المدرسة، حيث كان لبعض الفتيات جيادهن الصغيرة الأمر الذي كنت للأسف، لا أتحمل ثمنه.. والجواد الذي تعلمت عليه هناك كان عجوزاً.. لكنه بالطبع كان لطيفاً.. وبكل تأكيد كنت دائماً أتوق لجواد له ميل أكبر للسرعة.

ـ لا تقلقي.. ستجدين هذا هنا. أعدك يا آنسة.. سيكون لديك القدرة على الوصول إلى أعلى مستويات الكفاءة لو أنك تركت الأمر لي.

أيمكن أن تكون مخيلتها الحمقاء هي التي همست لها أنه لا يشير فقط إلى ركوب الخيل؟ علقت أنفاسها في حلقها وهي تحس بشخصيته تجذبها إليه.. مع ذلك كان الاعتماد الكامل عليه، كما اقترح، هو الذي تعارضه.. فسألت:

ـ هل ستأتي اليغرا معنا سيدي؟

ـ لا.

نسيت غوين أنه اتهمها باستخدامها لأخته كدرع فاصل.. لكنها تمسكت بهذا كحبل إنقاذ.. مع ذلك لم تكن لديها فكرة واضحة، من أين جاء سؤالها التالي، لأنه كان حول موضوع تجاهد أن تتجنبه:

ـ قلت إن اليغرا هي نصف شقيقة لك.. أيعني هذا أن روي كان..

ـ نصف أخي.. أجل.. ويجب أن أعترف بدهشتي لأنك لا تعرفين هذا.

ـ لم تذكر كريستين هذا يوماً.. ولم يكن مهماً.

ـ لكنك الآن تشعرين يا آنسة أنني.. غريب عنك؟

تخمينه صائب، لكن جزئياً.. فهو لا يمكن أن يعرف الطريقة التي يخفق فيها قلبها حين ينظر إليها، كما يفعل الآن، أيمكنها أن تعتبره غريباً؟

تابع حين لم ترد:

ـ أؤكد لك يا آنسة.. الرجل رجل، مهما كانت جنسيته.. لكن الدم الغريب أحياناً، قد يسبب بعض المشاكل.

ـ مثل رغبة روي في الزواج من إنكليزية؟

ـ ليس بالضرورة هذا.. مع أنه كان مقتنعاً بالانسجام والتواصل بينهما.

ـ وأنت؟.. لم تكن توافق.. لم توافق؟

ـ ليس بكل تفاصيل نظريته غوين. بل الأمر أكثر من هذا، كما أظن، كان علاقة موروثة مع بلاده.. فأمه كانت إنكليزية، ابنة أحد الأرستقراطيين.. الذي كانت آراؤه حول كيفية إدارة الأملاك تختلف عن آرائنا.. في أجزاء أخرى من فرنسا، قد تكون آراؤه مفيدة، أمّا هنا، يجب على المرء أن يكون مولوداً في مكان كهذا ليفهم طبيعة الأرض والناس.

ـ وهل حاولت غرز أفكارها في روي؟

ـ بالضبط، وربما الأمر طبيعي.. لكن وهي حية، كان حائراً بين آرائها وآراء والدنا.. لذلك لم يكن عجباً أنه ترعرع وشبّ على ذلك.

ـ لم أكن أعرفه جيداً.

تنهد عميقاً، وضغط على شفتيه:

ـ حقاً؟ كان من عدة نواحٍ شاب يثير الإعجاب، لكنه كان دائم التردد.. كان يرغب في إدارة المزرعة، لكن حين كنت أعود من باريس، كنت أجد الفوضى حتى في أبسط الأمور. ثم يعود فيقرر أن يدير أعمال العائلة في باريس.. لكنه كان يضعف عندما يستدعي الأمر قراراً حاسماً.

ـ ألم يكن بالإمكان أن يعمل تحت إشرافك؟

تحولت بسمته إلى سخرية:

ـ كان يرغب في شيء أكثر حريّة.. وفي الوقت نفسه كان يمتلك سماحة نفس ساعدته على الاعتراف بحدود إمكاناته.. ولذلك كانت أسعد أيامه حين يحصل على إجازة يقضيها مع كريستين.. لكنني، للأسف، كنت أجد صعوبة في أن أكون في مكانين في وقت واحد.

ـ وهل أعمالك في باريس.. معقدة؟

ـ نعم.. لكن لديّ الآن مدير كفؤ للغاية، أشعر بارتياح كبير تجاهه.

وجدت غوين نفسها تفكر بكل ما قاله لها، حين خرجا بعد دقائق

ليواجها برودة جو الصباح . . كانت الليالي لا تزال باردة، تقدم الصيف لا زال بطيئاً، لكن، ما إن ترتفع الشمس فوق ضباب الأرض لترسل أول شعاع دافىء على الأرض المستيقظة لتوها، حتى ينتشر دفء لطيف في كل مكان.

وكان ميشال قد وقف عن طاولة الطعام فجأة . . وكأنه قرر أنه قال الكثير، ولم يترك لغوين سوى وقت يكفي لأن تحضر سترة لها، ومنعها بنفاد صبر أن تقترب من جناح الطفل، قائلاً بثبات:

- بإمكان فيليب الاستغناء عنك هذا الصباح . . على الأرجح سترينه أكثر مما يكفي في المستقبل، ولن يذبل لو أهملته لبضع ساعات اليوم.

* * *

٦ ـ أملاك خاصة

كان ميشال، مرة أخرى، يرتدي قميصاً لامع الألوان، ويعتمر قبعة واسعة الدائرة، أحضر مثلها لغوين لتضعها على رأسها. ابتسم وهو يريها كيف تضعها:

- قد تصبح الشمس شديدة الحرارة، ولا يجب أن تخاطري في إفساد لون بشرتك.

بقيت عيناه عليها لحظة، وأصابعه تمسك ذقنها بخفة، ثم تحولت نظرته إلى شفتيها الزهريتين، تمعّن فيهما ببطء، أبعد يده، لكنها لم تستطع الحراك إلا بعد أن تركتها عيناه حيث قالت وصوتها يكاد يكون هامساً:

- شكراً سيدي.

كان الصمت مخيماً في المكان الذي بدا وكأنه لهما لوحدهما. غوين تذكر جيداً، أن اليغرا تكلمت عن عدد كبير من الرجال يعمل في المزرعة، لكن حين سألت ميشال أين هم، شرح لها أن الرعاة، ما إن ترتفع أشعة الشمس حتى يعودون أدراجهم إلى مساكنهم، وأشار لها إلى حيث يقيمون قائلاً:

- العديد منهم ما زال يسكن في بيوت طينية صغيرة سقوفها من القش وجذوع الشجر، وهي تساعد على الحدّ من حرارة الطقس والرطوبة.

كان لغياب الرعاة أثراً مريحاً على غوين حين ساعدها ميشال على ركوب مطيتها . . وقالت بخجل والجواد يتراجع وهي تتمسك بلجامه، أكثر

فراشة المحبة
www.liilas.com

مما تحاول الاستقرار على السرج:

ـ مضت ثلاث سنوات على تركي المدرسة.

ابتسم:

ـ إذن، لدينا هنا متمرنة مخادعة! مرت ثلاث سنوات على آخر مرة ركبت فيها جواداً، أهذا ما تحاولين قوله؟

هزت رأسها بالإيجاب، والارتباك يتملكها ليس فقط من لمسات ميشال، وإنما أيضاً لارتيابها في قدرتها على السيطرة على الحيوان الصغير، المتّقد نشاطاً، تحتها. قال ميشال بلطف:

ـ استرخي.. جلستك فوقه جيدة، ولو أنك لست خبيرة. وأنا هنا لأضمن أنك لست في خطر.

بضع كلمات قصيرة، كان لها تأثير المخدر وهي تجري بدفء فيها.. وتساءلت، أي نوع من الرجال هو، القادر على الإرهاب والإسعاد في الوقت نفسه؟ لا شك أنها ستحتقر نفسها إن هي لم تقدر له لطفه.. إلاّ أن وجهه الآخر لا بد أن يجعلها حذرة.

استعادت ثقتها بنفسها حين تملّكها شعور بأنها استرجعت مهارتها قبل أن تقطع شوطاً طويلاً، وتمكنت فعلاً من الاسترخاء، إلى درجة أملت فيها أن يكون ميشال مستعداً للرد على بعض الأسئلة.

ـ أجل.. بكل تأكيد، لا تزال الجياد البيضاء الشهيرة موجودة، ولو أن عددها انخفض كثيراً.. العديد من مربي الخيول اليوم يهجّنون الجياد البيضاء ذات السلالة العربية.. لكن هذا لا يعني أن السلالة الصافية لجياد البلاد مهددة بالزوال.

كان ميشال يمتطي جواداً عربياً أصيلاً، قال لها إنه استورده من شمالي افريقيا. وكان أكبر بكثير من الجواد الأبيض الذي تمتطيه، وقالت بخجل، تمد يدها تُربّت عليه:

ـ أظن أن هذا يعجبني أكثر.

مضى ميشال مسترسلاً، بعد قليل من الجري الخفيف، إلى جانب

مستنقع من الماء الحلو:

ـ وفي كل سنة، يأتي العديد من السواح إلى هنا على أمل مشاهدة قطعان الجياد البيضاء البرية.. والبعض يأمل أن يركب أحدها عبر السهوب الشاسعة. أعتقد، أن هذا يعود إلى افتتان الإنسان بشيء يعود أصله إلى القديم..

سألته بشوق:

ـ أهناك فعلاً قطعان من الجياد البيض يمكن رؤيتها؟ أم إنها الآن نادرة الوجود ولا طائل في التفتيش عنها؟

ـ لو قلت لك إننا نقترب الآن من الوصول إلى قطيع منها.. فماذا ستقولين؟

ـ لا أكاد أصدق.. فالكثير من النزلاء في الفندق فشلوا.

ـ لأنهم لا يعرفون أين يفتشون.. في مثل هذا الوقت من السنة.. وقت التوالد، يفضل القطيع أن يختبيء.

ـ قلت انك تعرف مكان وجودها؟

ضحك:

ـ بما أنه واضح لي أنك راغبة في الموافقة على رد هذا الجميل.. فكيف أستطيع أن أرفض؟

انتابها قلق من شيء لم تكن قادرة على معرفته، أيمكن أن يكون بسبب ما بدا في كلماته من وعيد؟

ـ أنا دائماً أحاول أن أكون موافقة.

على أي حال.. ماذا يمكن لخطوة صغيرة في الظلام أن تعني أمام فرصة رؤية الجياد البيضاء الشهيرة؟ بثقة الأطفال، وبعد أن ترجلا عن مطيتيهما، وضعت يدها في يده الممدودة، وسمحت له أن يقودها عبر الأشجار.

غابة الصنوبر كانت متاخمة للمستنقع، وعبرها كانت تمتد سهوب واسعة من الشجيرات الشوكية والوعور الجافة التي تشكل جزءاً من مرعى لقطيع من حوالي الأربعين جواداً.. وقال ميشال بهدوء هامس:

ـ هذه واحدة من الأماكن المفضلة لديها. . بإمكانها أن ترعى على مسافات واسعة، لكن، غالباً ما تتواجد هنا.

لم يسمح لها بالاقتراب أكثر، مع ذلك، عبر ستار واقٍ من الأغصان، استطاعت الرؤية بوضوح مقبول. . وكانت هذه تجربة لا تنسى. . بضع مهور حديثة الولادة، كما هو واضح، تقوم بأولى خطواتها المترددة المترنحة، فوق سيقان طويلة جداً وبالكاد تتمكن من دعم وقوفها. . قال ميشال:

ـ قريباً سيكونون بالقوة الكافية ليركضوا كالريح. . وحتى ذلك الوقت سينعمون بحماية القطيع.

ـ تعرف الكثير عنها، وأعتقد أن هذا طبيعي، وأتوقع أن تكون تملك بعضاً منها.

أجفلت لتسرعها، فبما أنه قضى عمره هنا، قد يجد قولها سخيفاً. . لكن ولو أنه وجد هذا، فلم يعط أي دليل عليه. فقد عادت عيناه إلى القطيع، وكأنه لم يسمع سؤالها، ذلك لأنه سمعه عدة مرات من قبل.

ـ على عكس ما يظن الكثيرون، جياد المنطقة اليوم لم تعد برّية بالكامل، لا بالنوعية ولا بالخصائص. . في مزرعتي هذه، أملك مئة جواد، وهناك أعداد متفاوتة في مزارع أخرى. . ولكل مزرعة دمغة خاصة.

الاهتمام المتزايد الذي كانت تبديه غوين، كان مصحوباً بازدياد تأثير المشهد فيها. . وعلى مقربة منها كانت طيور الفلامنغو تترنح مبتهجة بالماء. . بينما أشعة الشمس الذهبية تنعكس على صفحة الماء الراكد. . فشعرت بالحيوية تدب في جسدها وتمتلىء نفسها بشعور أخّاذ أمام هذا المشهد المذهل.

يجب عليها أن تتذكر أنها غير قادرة على البقاء، وكأنها لسعت، جذبت يدها عن ذراعه، بعد نظرة أخرى على الجياد التي ترعى، استدارت عنها. وقالت متمتمة:

ـ الوقت يقترب من الظهر. . ألا يجب أن نعود إلى المنزل؟ قد تتساءل

اليغرا عن مكان وجودنا.

تجاهل ذكرها لأليغرا، لكنه هز رأسه:

ـ في الواقع يجب أن نعود إلى جوادينا يا عزيزتي، فالذكور عادة تكره وجود ذكور غريبة. . ومع أنها تعرف جوادي فهي لا تعرف جوادك.

لاحظت غوين أنه لم يعلق بشيء على انسحابها المفاجىء. وكأنه يفهم مدى انفعالها العاطفي أكثر مما تفهمه هي. . وتحركت عيناه الخضراوان تحت إطار رموشه الكثيفة. . وحاولت أن تستجيب:

ـ لقد أعطيتني الكثير من السعادة هذا الصباح. . ولن أنسى هذا.

لمعت ابتسامته البيضاء بشكل شيطاني:

ـ لا تقلقي. . أعرف الحساب. وفي يوم ما، سأرسل لك الفاتورة. لكنني آمل أن تجديها قابلة للدفع.

لماذا يتركها دائماً مع الكثير لتفكر به؟ فإمعانه بمعاملتها على هذا النحو سيجعل كراهيتها له أقوى. . دائماً يذكرها بأنها مدينة له بالكثير ويلمح إلى أوان السداد. . فباستثناء اللياقة المترددة والشكوك فيها أحياناً. . فهي لم تنل منه شيئاً!

حين وصلا المزرعة. . وترجّلت عن جوادها. . شعرت أن أطرافها متصلبة، ولا تستطيع الوقوف. وبشكل غريزي تمسكت بميشال دوكوبيري لاستعادة توازنها. . وشهقت:

ـ آسفة سيدي.

ـ لو كنت رجلاً شكاكاً آنستي، لتصورت أنك لا تتحملين تركي. .

أطبقت يداه عليها تثبتانها لتقف. . فأغمضت عينيها فجأة لمقاومة ما بدا لها أنها محاولة ليحتضنها بينما في الواقع كان يمسكها بخفة.

حين فتحت عينيها مجدداً، كانت ثابتة على قدميها، والعذاب في داخلها. . وكررت:

ـ أكرر أسفي. . يجب أن تعرف أن سبب ذلك هو عدم اعتيادي على مثل هذه الرياضة.

- بالطبع . . لكننا سنجعل منك فارسة على أي حال، يا عزيزتي .

بسرعة نزع السرج عن الجواد، ثم ضربه على مؤخرته يشرح لها وهي تراقبه يبتعد :

- الجواد الأصيل لا يطيق الاسطبل أبداً . . في الشتاء، حين لا نستخدمه كثيراً، يجري حراً في المرعى مع الآخرين .

همست :

- إنها حياة جميلة .

- هذا صحيح . . إنها هكذا للإنسان كما للحيوان . . أظن أنك حصلتِ على نزهة عظيمة بما يكفي لهذا اليوم . . بعد الظهر يجب أن نرتاحي . . ما زلت ضعيفة .

لكن، بعد ظهر ذلك اليوم، وصل إلى «حرم دوكوبيري» كما تُعرف المزرعة محلياً، زائر . . بعد الغداء بقليل، أوقفت السيدة بينيت سيارتها أمام الباب، ودخلت المنزل بخطى واثقة، فهي تألف المكان تماماً، وبما أنها على الرَّحب والسَّعة فيه، لم يكن ضرورياً الإعلان مسبقاً عن مجيئها .

لم يكن صعباً على غوين ملاحظة مدى جاذبية السيدة كورين بينيت وهي تنضم فوراً إلى ميشال الذي كان يحتسي قهوته .

لم تمض سوى دقائق فيما بعد، وقد استقرت إلى قربه، حتى نظرت إلى غوين، تتفحص بنطلونها الجينز البالي قائلة لها :

- ذكرت لي اليغرا زيارتك . ويجب أن أعترف بأنني أحسست بالفضول حول عائلة المسكينة العزيزة كريستين . . معرفتك تثير اهتمامي .

لكن تعابير وجهها كانت تقول العكس تماماً، وكان الأفضل لها أن تعلن بصوت مرتفع إنها تعتبر غوين مجرد نكرة لا تستحق الاهتمام . بينما انتاب غوين شعور بالغضب تمكنت من كبته عندما بدا لها أن السيدة بينيت تكن تجاهها مثل هذا الشعور، فنظرات السيدة وتلميحاتها تشير إلى أن غوين لا تستحق تكبد عناء السفر تحت حرارة الشمس، فما من شيء في هذه الفتاة يوحي بأنها تهدد مساعيها لوضع يدها على ميشال دوكوبيري .

كادت أن تصرخ بها «مبروك عليكِ، فكلاكما يليق بالآخر» . ولأنها سعت إلى إخفاء غضبها، ابتسمت قليلاً، لكن وتيرة امتعاضها عادت إلى الارتفاع حين قال ميشال يبرر للسيدة بينيت وجود غوين :

- الآنسة كرايجر ستبقى هنا لبضعة أسابيع فقط، يا عزيزتي، والأرجح أنك لن تريها كثيراً . جاءت لزيارة ابن أختها لتأخذ بنفسها تقريراً لجديه في جنوب افريقيا .

- هكذا إذن . .

وانطلقت تتحدث بالفرنسية، ربما لا تعرف أن غوين تفهمها، وبنظرة ازدراء أخرى نحو غوين تابعت بالفرنسية :

- . . لكن هل كل هذا ضروري ميشال؟ لطالما كنت تعارضه .

هز ميشال كتفيه، دون اكتراث أو خجل، ولاحظت غوين بمرارة كيف كان يجر أصابعه بنعومة على يد كورين التي تريحها على ركبته . . وقال :

- هناك ظروف اضطرارية تسمح بهذا «يا عزيزتي» . . فوالد كريستين مريض . .

بعد لحظات، تمكنت غوين من الخلاص، ولا تزال تغلي من الغضب، وتحس بوميض عينيه الساخرتين . . بارتباك خفيف تمتمت شيئاً عن إخراج فيليب إلى الحديقة، وخرجت .

لحقت اليغرا بها إلى جناح الطفل :

- لا يجب أن تنزعجي من كورين يا عزيزتي . . إنها فقط تحاول تحذيرك، وأظن هذا طبيعي، فمنذ موت زوجها وهي معجبة بميشال .

ردت غوين متصلبة :

- لا سبب يدعوها للاعتقاد أنني قد أعرض خططها للخطر . . لكن من المؤسف أن شقيقك بنفسه أعطى الانطباع أنني هنا في زيارة طويلة .

ضحكة اليغرا المرحة تحولت فجأة إلى عبوس، بعد أن استدارت من تأمل وجهها على المرآة المعلقة على الجدار الأبيض، وقالت متوسلة :

- لكنك ستبقين غوين . . لو طلب منك ميشال؟

منذ برهة قصيرة، كان يمكن أن توافق غوين باستسلام، لكنها الآن لم تعد واثقة. نوع من الذعر تملكها، يرمي بها إلى دوامة من التشوش، يخفض صوتها إلى ما يشبه الهمس المخنوق:

ـ لا أستطيع إعطاء وعد.. اليغرا. إضافة إلى هذا لا أظن ميشال يعني ما يقول، فقد كان وهذا أكثر احتمالاً، يثير السيدة بينيت قليلاً.. ليجعلها تغار.. مع أنني لا أستطيع التفكير بسبب يجعلها تغار مني.

تحول عبوس اليغرا إلى ضحك مرة أخرى:

ـ ألأنك تتصورين أنك بشعة؟ لكنك لست هكذا غوين.. في الواقع، أحياناً تبدين جميلة جداً!

جميلة جداً! تنهدت غوين.. لا يمكن أن تكون هكذا أبداً! قالت بجفاء وبعض التحدي.

ـ لكن لا يبدو أن السيدة بينيت تفكر هكذا.. فتعابير وجهها لم تترك شيئاً لم تقله!

ضحكت اليغرا بمرح، وكأنها سراً لا تحب كورين كثيراً:

ـ هذا مع أنها لا تعرف شيئاً مما يدور هنا.. ماذا ستكون ردة فعلها، حين أقول لها إنك خرجت مع ميشال إلى المستنقعات مع الفجر؟ وإنه أظهر لك جياده الثمينة، وهذا شرف يقتصر على القليلين، حتى أنا!

نظرت غوين إليها بندامة:

ـ أنا حقاً آسفة على هذا اليغرا.. فأنا لم أفكر بك، ميشال لم يعطني الفرصة...

لم تلحظ كم أصبحت تستخدم اسمه الأول دائماً، وبسهولة. لكن اليغرا لاحظت واشتدت حدة نظرتها بلمعان الرضى، وقالت بسرعة:

ـ لم أشأ أن أرافقكما، ليس هذه المرة، ويسعدني جداً أن ميشال بدأ يرتاح إليك.. ألم أقل لك إنه سيفعل يا عزيزتي؟ أكاد أرى باريس تقترب مني يوماً بعد يوم!

انتاب غوين شعور قلق.. اليغرا سعيدة، مليئة بالمرح والتفاؤل، ولكن

ليس كل شيء على ما يرام، ما زال الكثير من الأمور غامضاً ويستدعي مناقشته مع اليغرا قبل أن ترحل إلى أي مكان، إنما بحذر.. راودتها فكرة أقلقتها.. إن سافرت اليغرا لن يكون في هذا الدار من أهله سوى ميشال... ألن يكون ذلك محرجاً لها؟

الأمر كله مربك.. مسحت غوين صدغها بقلق.. وأحست بقلبها يثقل بخوف مجهول، وإحساس غريزي بالكارثة، كارثة أسوأ بكثير مما عرفته يوماً.

كان فيليب، الصبي الهادىء القانع، يلعب عند أقدامهما وهما تتحدثان.. حملته غوين تضمه إليها، وكأن دفء جسده الصغير يمكن أن يبدد مخاوفها.. ولم تعلق المزيد حول باريس. بل سألت اليغرا إذا كانت ترغب في أن تأتي معها إلى الحديقة.. فهناك كانت تأمل أن تجد طريقة لتحدث فيها اليغرا بمنطق. لتشير إلى أن هناك مشاكل قد تعترض خططها، وبشكل غير مباشر.

لكن كالعادة، كان لأليغرا مشاريع أخرى:

ـ حبيبتي.. أنا آسفة! أنا مضطرة لقضاء ساعة مع كورين بعدها سيصل روبير ليخرجني.. لقد توسل إليَّ كثيراً، ثم أنها طريقة لكسب رضى ميشال، فكيف لي أن أرفض؟ إذا ظن ميشال أنني أحب روبير، فلن يمانع في ذهابي إلى باريس، فسيكون متأكداً أنني سأعود.. والحديقة ستبقى موجودة ليوم آخر.

فيليب لم يعد طفلاً، بالمعنى الكامل للكلمة. يكاد يصل السنتين ويمشي جيداً، مع أنه يفضل الجلوس على الأرض. لكن هذا قد يكون سببه، كما لاحظت غوين بسرعة، كثرة بقاءه في جناحه، حيث لديه العديد من الألعاب، وفرصة قليلة لتمرين ساقيه فوق الأرض المصقولة اللماعة.. من السخافة الادعاء، مع كل ما عنده، أنه محروم، إلا أن غوين كانت تشك أن الخادمة كانت تهمله أحياناً فتتركه لوحده، مع نظرة سريعة من حين لآخر، من على باب غرفته للتأكد من أنه لم يصب بأذى، وهذا أمر مؤسف، لكنه

على أي حال أصغر من أن يعترض . . ميشال مشغول، ويتصور أن فيليب، بما أنه هادىء، فإن كل شيء على ما يرام. وكمعظم الرجال لن يفهم أن الطفل قد يستفيد أكثر لو حصل على برنامج يحفل بمزيد من النشاط والحركة.

بسرعة، لملمت بضعة ألعاب وحملتها مع الصبي إلى الحديقة. في طريقها توقفت لتقول لجانيت أين ستكون، فجانيت، بالرغم من مساوئها تصر دائماً أن تعرف مكان وجود فيليب. قالت، مشغولة بالخبز الذي لا ينتهي، لكن مع ابتسامة:

ـ حسناً، آنستي.

اكتشفت غوين، أن فيليب، أحب الحديقة، وأنه منذ بدأت تخرجه إليها، بدأت أطرافه الصغيرة تكتسي اللون الأسمر. غالباً ما كان يلطخ ملابسه بتراب الحديقة ووحولها، كأي طفل آخر، فها هو الآن يتدرج متنططاً يطارد فراشة ملونة، ترفرف بجناحيها الشفافتين، بعيداً عن منال الأصابع الندية. . كان الجو يعبق بروائح ثقيلة حادة من الزعتر والورد البرّي. كان الورد البرّي يزهر بكثافة إلى الجهة الخارجية من الحديقة. تنشقت غوين الرائحة بعمق. . إنه زمان البراعم، وفي كل مكان كانت الشجيرات الداكنة، والأشجار، تلتهب بألوان برّاقة من الأزهار المتفتحة، بعضها من النادر وجوده في حدائق انكلترا.

في هذه اللحظات وصلت مدام بينيت.

حاولت كورين إعطاء الانطباع بأنها تتمشى في الحديقة، لتمضية الوقت، مع ذلك كانت تتجه إليهما عن قصد حتى أن غوين شعرت بالارتباك حين ادّعت المرأة أنها تفاجأت بوجودها حيث قالت مع ابتسامة خبيثة:

ـ لقد نسيت أنك تنوين الخروج إلى هنا. وكيف حال طفل ابنة عمك المسكينة اليوم؟

بسرعة، انحنت فوق فيليب تلكزه بأصابع طويلة حادة الأظافر. . بألم متوتر، انكمش الصبي إلى غوين. . كان اهتمامه منشداً إلى زهرته وقد فاجأه

تقدم كورين نحوه. ثم، وأمام سخط غوين، بدأ يبكي، في وقت كانت المرأة تتابع النظر إليه، بعينين قاتمتين شريرتين.

قالت كورين ببرود:

ـ يمكن للمرء أن يلاحظ من نظرة واحدة، عوزه للانضباط. . ألم أقل هذا لميشال مئة مرة! طبعاً هو يوافق معي. . لكنه مشغول جداً، يا للرجل المسكين. طفل صغير يحتاج إلى يد صارمة، لكن للأسف، ليس لي السلطة حالياً. . على أي حال، وفي وقت قريب جداً. . سيتغير كل هذا.

ـ فيليب لا زال صغيراً. ولم يتوقع رؤيتك، وتلقى صدمة خوف صغيرة، والطفل عادة تكون ردة فعله غريزية، ولم يتعلم بعد التصرف بتفكير.

بدا أن كورين ارتاحت، وهدأ غضبها قليلاً، إلى درجة الابتسام مجدداً في وجه غوين القلق، ثم ضحكت قائلة:

ـ حسناً. . سأتحمل التأنيب يا آنسة. . أرى أن كلانا ناضجتان، ويجب أن لا ندع بكاء طفل صغير أفسده الدلال، يثير غضبنا. . وكنت أتساءل ما إذا كان ميشال سيدعك تأخذين فيليب ليعيش مع «غرايجر» في جنوب افريقيا، وكم أن هذا مناسب للجميع.

منذ أسابيع، حتى منذ أيام مثل هذا الاقتراح كان ليسعد غوين، لكنها الآن لم تعد واثقة. . وقالت دون تفكير:

ـ السيد دوكويبري لن يفكر مطلقاً بمثل هذا الاقتراح.

ضاقت عينا كورين، وكأن شيئاً يسليها، وسألت بخبث:

ـ السيد دوكويبري؟ بإمكانه أن يكون عنيداً جداً، هذا الرجل يا آنسة كرايجر. . فيليب يجب أن يحصل على حصة أبيه المسكين. . واليغرا التعيسة الحظ يجب أن يكون لها بائنة جيدة. . ومن الجيد أن يكون ميشال ثرياً، وإلا فماذا سيبقى لزوجته المسكينة حين يتزوج!

ردت غوين ببرود:

ـ هذا ليس من شأني.

بينما كانت تتوق لأن تسأل ما إذا كان من شأن كورين أيضاً. . لكن،

لماذا تشعر بالذعر إزاء فكرة زواجه بكورين؟ فالمرأة أرملة فاتنة، وستكون له دون شك زوجة مناسبة. . ولا شأن لغوين أن تزعج رأسها بمثل هذه الأفكار.

أحست أن كورين عادت لتتكلم، وأنها بالرغم من انخفاض صوتها، كان يحمل خيطاً من العنف المهدد:

ـ حافظي على أن لا يكون لك شأن في هذا آنستي، عندها لن يكون بيننا ما تتخاصم حوله! أما بالنسبة لأخذك الطفل معك في رحيلك، حسناً، لا تفكري كثيراً. فقط انتظري لتري!

مصعوقة، راقبتها غوين وهي تنطلق مستديرة بحدة مسرعة في رحيلها مثلما جاءت. . ووجدت نفسها تقول في نفسها «واو!». . لا شك أن السيدة بينيت، قوة يجب الحذر منها، فهي تؤكد في تهديداتها بأن لا وازع لها لتحطيم كل من يقف في طريقها، وباتت غوين تدرك ذلك جيداً فالسيدة كورين مصممة أن تصبح السيدة دوكويبري. . وتوقف فيليب عن البكاء، وتسلل من بين ذراعي غوين لحظة مغادرة كورين. . وتنفست غوين الصعداء. . ووجدت نفسها تتعلق بفكرة أسعدتها، وهي أن ميشال لن يفترق أبداً عن طفل أخيه، وهذا ما تعرفه بالغريزة، لكن ما نوع التربية التي سيحصل عليها إذا تزوج عمه امرأة مثل كورين بينيت؟

انقضت عدة أمسيات بعد هذا اللقاء، وكانت غوين هذا المساء قد نزلت إلى الحديقة بمفردها لتتمتع بالسباحة في البركة. .

اقترحت جانيت عليها أن تأخذ وجبتها إلى الحديقة، وتسبح، قالت مبتسمة:

ـ سيحمل أحد الصبيان الصينية لك مدموزيل. . ستتمتعين بالعشاء أكثر وأنت تشعرين ببرودة الطقس، وسترين.

راقت الفكرة لغوين كثيراً، فهي لم تسبح بعد في البركة. فاليغرا لم تكن تبقى كثيراً في المنزل لترافقها، وأحست بالتردد الغريب لاستخدامها منفردة، لكن ما من أحد هنا اليوم، ولا فرصة أن يكتشف ميشال مكان وجودها على حين غرة، فهو لن يعود إلى المنزل قبل وقت متأخر.

هكذا اقتنعت. وبعد تمتمة كلمات شكر بأنفاس مقطوعة، عادت إلى غرفتها لترتدي البيكيني وتضع روب السباحة. . غطست في البركة وسبحت إلى أن تعبت. . بعد تناول وجبتها استلقت ناعسة منخمة، أحست بالخجل لأن تدرك أن بإمكانها أن تغفو بسهولة كما حصل لها منذ ساعات. . كان الهواء ساكناً حاراً، والظلال تتجمع في وجه النور الذي أخذ يتلاشى. حتى صيحات الطيور انخفضت إلى زقزقة هامسة، وأخلدت آخر الحشرات العاملة إلى الهدوء. . بعد وقت قصير، ستذهب بدورها لتخلد إلى النوم، لكنها الآن لا تستطيع أن تتحرك. في الواقع، مضى وقت طويل لم تشعر بمثل هذا الاسترخاء.

ربما بسبب هذا الإحساس، حين رفعت جفنيها المثقلين لترى ميشال دوكويبري ينظر إليها وهو واقف، اختبرت لحظة امتعاض. إحساس مزدوج من الإثارة الخاطفة، تجاهلتها، لماذا يقوم القدر بإبرازه أمامها هكذا؟ خلال الأيام القليلة الماضية، شاهدته باستمرار، وكثيراً في الواقع. . أمن العبث غير المنطقي أن تأمل بفرصة تلتقط فيها أنفاسها؟ كان خفيف الحركة بشكل حاسم، بحيث لم يكن يترك لها فرصة، وأحست أن دفاعاتها الضعيفة تهتز. قالت بصوت ضعيف:

ـ مساء الخير سيدي.

جمعت روبها على جسدها دون سبب. . عيناه الثاقبتان راقبتا أصابعها المرتجفة المتعثرة، وارتفع حاجباه السوداوان بسخرية، وسأل بصوت فيه شيء من الاهتمام القلق:

ـ أتشعرين ببرد مفاجيء؟

سخريته صدمتها، وشتتت مزاجها الهادىء، أجابت تتحداه بحماقة:

ـ لم أكن أعلم أنك ستعود باكراً.

ـ هذا واضح. لكن لا داعي للتصرف وكأنك ارتكبت جرماً في سباحتك. . أم أن في الأمر شيء آخر يا آنسة غوين، وهو ما أزعجك؟

نظرته الساخرة تحولت إلى بقايا وجبتها الباردة، وأكمل:

ـ لو كنت أعرف أنك تحتفلين، لكنت انضممت إليك بدلاً من تناول وجبتي في الطريق.

احمر وجه غوين بانزعاج، نظرته الممازحة كانت مركزة، بطريقة لم تستطع فهمها:

ـ الليلة حارة، والوجبة خفيفة، وأشك في أنك تناولت طعامك لوحدك.

ضحك لملاحظتها الدقيقة، وقال معترفاً:

ـ لا.. لم أتناول الطعام لوحدي.. على الأقل انضم إليَّ شخص أعرفه منذ زمن لتناول القهوة، وهذا ما لم يكن مسلياً، كما لو كان معكِ هنا.

رفرفت خصلات شعرها الكثيفة فوق خديها المحمّرين.. ربما تستحق أن يقول لها هذا! بجهد مركز أدارت نظرتها عنه، تحاول إيجاد ما يلهيها في جمال الحديقة حولها، لكنها أحست بالإحباط حين استمر طيفه يسد لها طريق الرؤية، وكأنه مطبوع في بصيرتها!

أعادت نظرها إليه بتوتر، تتساءل بيأس، أي سرّ فيه يجعلها غير قادرة على المقاومة، لا شك أن يومه كان متعباً، لكنه لا زال في مظهر كله نشاط يضج بحيوية ساحرة. عيناه لامعتان حادتان، لا تفوتان شيئاً. إن شخصيته الديناميكية تجعله متفوقاً دائماً وما من فرصة لفتاة مثل غوين كرايجر أن تهزمه في لعبته الخاصة ولا في أي لعبة أبداً، هذا إن فكرت بذلك!

تعلقت عيناها بقميصه الأملس الحريري المفصل بدقة تخلو من الشوائب، واضح أنه استحم وغير ملابسه بعد أن عاد إلى المنزل.. وتخلص من بذلة العمل، ليرتدي بنطلوناً مريحاً.. كان يبدو هادئاً، بارداً، ومتباعداً. لكنه كان رجلاً بكل معنى الكلمة.. وهذا ما هي واثقة منه تماماً.. رجولته لا شك فيها أبداً، لكنه مع ذلك خطر، وهذا ما تعرفه جيداً كذلك. أخذت تناجي بصمت لتتمكن من الاحتفاظ بهدوئها.

وبما أنه كان، وبوضوح، ينتظر منها أن تنهي كلامها أو أن تكمل.. قالت بصوت ضعيف:

ـ لا أظنك ستجدني مدعاة تسلية لك، لفترة طويلة.. وبما أن لا شيء مشترك بيننا، فمن الصعب أن نجد ما نتحدث فيه.

* * *

٧ ـ أبعد من الخيال

لو كانت غوين تأمل أن تربكه بمثل هذا الكلام.. فقد فشلت.. بسرعة برقت عيناه بحدة:

ـ أنتم الإنكليز، تعطون أهمية كبيرة للأحاديث المطولة، أليس كذلك عزيزتي غوين؟ أما نحن فدائماً نفكر بطرق أفضل لقضاء الوقت، خاصة في مثل هذه الساعة من المساء.

الآن عرفت أنه يتعمّد إزعاجها بالمزاح.. سيطرت عليها رغبة فورية بالنهوض والابتعاد بدون أي تعليق، لكن، بدت عيناه وكأنهما تسمرانها فوق المفارش الناعمة للكرسي، ولم تتمكن سوى من إظهار امتعاضها، في وقت كان اللون الأحمر ينتشر بجنون على بشرتها.. وقالت غاضبة:

ـ أنا لست معتادة، كما لا بد تعرف، على كيفية عمل رأس الرجل الفرنسي.. وبالكاد يهمني هذا، لأنني سأرحل في أقرب وقت ممكن!.

دون إنذار، هبط يجلس إلى جانبها على حافة الكرسي العريض، يواجهها وصوته مليء بنعومة خبيثة.

ـ ربما جعلك الجو هنا متوترة قليلاً.. يجب أن أكلم جانيت في الأمر.

ـ لا.. أرجوك، فأنا لم أقصد أن أكون وقحة.

ـ لكنكِ هكذا طوال الوقت. ماذا تأملين بالضبط أن تكسبي من هذه المعارك الوهمية التي تخوضينها؟

صاحت، تحاول عبثاً الابتعاد عن يده المتسللة لتمسك بها، بغض النظر عن مقاومتها:

ـ إنك تتكلم بالألغاز سيدي.. لماذا يكون لدي شيء أخفيه؟

هز كتفيه بعدم اكتراث مفاجيء، ثم تنهد:

ـ ربما أنتِ على حق.. أنت شابة صغيرة آنستي.. ثم هذه اللحظة تبدين فاتنة، لكن، على عكس ما تعتقدين هناك شيء نتكلم عنه، شيء مشترك بيننا. وهذا ما كنت أتردد في بحثه.. وأظن أن هذه لحظة مناسبة كغيرها.

زاد عمق مخاوفها وهو يكمل:

ـ وصلنا خطاب من ابنة عم أبي جوسلين، إنها عائدة إلى فرنسا وتأمل أن تذهب اليغرا لتقيم معها في باريس لفترة قبل أن تعودا معاً إلى نيويورك.

زاد حذر غوين وهي تحس باقتراب الخطر:

ـ فهمت..

ـ هكذا، آنسة كرايجر، نواجه الآن مشكلة فيليب.

ـ أوه.. أجل سيدي.

وتابعت بإلحاح:

ـ بالطبع، لا يمكن التوقع أن تضحي اليغرا بحياتها لأجل الطفل.. ومن الجيد أن تكون مستعداً لتقبل المنطق.

شيء ما، ربما لهيب غضب شديد، لمع في عمق عينيه:

ـ وهل هذا موضع سؤال؟

ـ آسفة.. ما عنيته هو..

قاطعها ببرود:

ـ أنا واثق أنني أعرف ما تعنينه.. تتصورين أنني على استعداد لمفارقة الصبي، وأن أسمح لكِ بأخذه؟

أخذت نفساً عميقاً:

ـ ليس بالضرورة.. فقد يكون لك خطط خاصة بك.

يمكنه مثلاً أن يقرر الزواج بكورين، أو قد يكون هناك غيرها مستعدات، خاصة وهو بالثراء الذي ألمحت إليه كورين.. وإضافة إلى هذا، فليس من المستحيل أن يحصل على مساعدة كفؤة لتربية الطفل.

قال وهو ينظر إلى وجهها عن كثب، يقرأ بوضوح مسار أفكارها:

فراشة المحبة
www.liilas.com

ـ لدي خطط. أجل.. فأنا أعرف قلق اليغرا منذ فترة، لكن الحل كان يراودني إلى أن وصلتِ.

أبعدت نظرها عنه بيأس.. اعتقدت أنه توصل إلى قناعة بصواب الحل الذي قدمته اليغرا، بتردد مؤلم قالت:

ـ أتعني...

ـ أنا على ثقة يا غوين بأني لست مضطراً للبحث عن مجرد مربية، بل عن زوجة.

يا للسماء! ذهلت للحظات، قبل أن تبدو لها أن المفاجأة في داخلها قد تجمدت.. وهمست، تشحب بوضوح والارتجاف يغمرها:

ـ زوجة؟

ـ ولمَ لا؟

ـ آه.. طبعاً سيدي.. مربية شابة، على أي حال تتطلب وجود امرأة تحمي سمعتها.. ربما.. السيدة بينيت..

تمتم ساخراً، وهي تتردد:

ـ هيا.. تابعي، ماذا تحاولين القول؟

نظرت إليه بخوف:

ـ أوه.. أرجوك.. المسألة أن السيدة بينيت قالت إن زوجة لك هي الحل الأفضل.. كانت تتكلم بشكل عام.. أتفهم؟ امرأة تعتني بأن ترعى مربية فيليب جيداً..

لكنها لم تجرؤ على ذكر مخططات كورين الأخرى حول الصبي.. وكان هناك الكثير تخاف أن تقوله له، فقد يكون غضبه كبيراً.

ـ إذن، يجب أن أحمل مسؤولية زوجة ومربية ملائمة، اثنتان، في وقت ليس من الضروري وجود سوى واحدة.

ـ لكن السيدة بينيت..

ـ سنضع السيدة الطيبة جانباً في الوقت الحاضر غوين.. مع أنها قد تكون ضرورية. فهي لا شك شخصية تثير الإعجاب.. لكنني الآن أطلب

منك أنتِ، التفكير بهذا المركز.. أطلب منك أنتِ، أن تكوني زوجتي.

اكفهر وجهها وشهقت:

ـ أرجوك.. لا أتصور أنك جاد.. ولا أستطيع إبداء الإعجاب بمزاحك!

ـ أنا لا أمزح عزيزتي.. لا تظهري لي هذا القدر من عدم التصديق.. فهذه ليست فكرة جديدة تماماً، شيء لم يُسمع به من قبل.. فالرجال تزوجوا للهدف نفسه منذ أجيال.. وبوجود إنسانة لها تدريبك، وتناسب غرضي تماماً، أنا أكثر حظاً من غيري، إذا صح التعبير.

وهي تصغي إليه، تملكها إحساس غريب، بأنها تغوص في مياه عميقة، لا تأمل أبداً في العودة إلى سطحها، ولا الوصول إلى قعرها.. إنها تغرق، لكن ربما في هذا المجهول ستتمكن من استعادة شيء من تعقلها.. اتسعت عيناها في وجهه الوسيم.. وأدركت أنه يعني كل كلمة تلفظ بها.. لكن، لا يبدو أن هذا ممكناً.

دون وعي، بللت شفتيها، وقالت:

ـ بغض النظر عن مشاعري.. أيمكن أن تضحي بكل أمل لك في الزواج من امرأة تحبها لمصلحة ولد ليس ابنك أصلاً؟

ـ أوه.. لا تخافي آنستي.. سأجد ما يعوضني عن هذا. فهناك الكثير يمكن الاتفاق عليه.

ـ ربما تفكر بالطلاق، بعد بضع سنوات، حين يصبح فيليب أكبر سناً؟

ـ الفرنسي عادة لا يتزوج إلا بعد أن يصبح كبيراً.. لكن حين يتزوج، يكون هذا لما تبقى من حياته.. عادة.

انحبست أنفاسها في صدرها.. وحين عاودت الكلام، استعاد وجهها تلك الحمرة المجنونة ليكشف ارتباكها:

ـ لكن..! لكن، إذا لم يكن الزواج ملائماً؟

ـ الإنسان يتعامل مع الصعوبات حين يصل إليها عزيزتي.

كان يتحدث بالألغاز، ألغاز رهيبة تسرّع خفقان القلب، وجمعت قليلاً من قوتها لتقول:

ـ ما تقترحه مستحيل، بكل تأكيد.. من السهل عليك أن تجد مربية ملائمة، وقريبة مسنة ترافقها هنا.. أنا نفسي مستعدة أن أبقى وقتاً أطول في هذه الظروف.

ـ ثم ترحلين! ويعود الولد إلى تحت رحمة التغيير.. كما أن القريبة المسنة ليس لها وجود.. عليك إذن التفكير ثانية يا آنسة.

ـ آسفة.

ارتفع كتفاه، تتحرك العضلات فيهما بنعومة تحت قميصه.

ـ وأنا كذلك.

نظرت إليه بارتباك.. كان رده مهذباً، لهجته لا تحمل أسفاً واضحاً، وكأنه في رأيه، وبالرغم مما قالت، يتوقع النتيجة المرضية أن تأتي مع الوقت والصبر.. وكانت تحب لو تتخلص منه وتهرب، لكن يده كانت تمسك بذراعها ولا يبدو على استعداد لتركها. حين تكلم ثانية، لم يكن أمامها سوى الإصغاء بخضوع إلى ما سيقول:

ـ خذي بضعة أيام، وفكري بالأمر. فكري أيضاً بالارتياح الذي سيعرفه عمك وزوجته لو غيرتِ رأيكِ. قلب عمك سيستفيد دون شك.

ردت بعناد، ترفض الابتزاز بهذه الطريقة:

ـ لست بحاجة لأن أفكر.

لكنه أكمل كلامه وكأنها لم تتكلم:

ـ إذن، ربما إذا استمريت بالرفض، سأطلب من سيدة أخرى أكثر رغبة منك.. امرأة لها قلب حنون، عطوف، محب، مثل كورين بينيت، التي أعتقد أنها سترعى ابن أخي، كما ترعينه أنتِ تماماً.

ردت غوين بحدة:

ـ أنا واثقة أنها تستطيع هذا سيدي!

لكن عيناه استمرتا بالسخرية منها، حتى أن الغضب اشتعل داخل

شرايينها، واضطرت للرد:

ـ أنت ساذج سيدي، لتتصور أن ارتباطاً بيننا سينجح.. فليس بيننا أي شيء مشترك!

طار شرر الغضب من عينيه، واشتدت أصابعه على ذراعها:

ـ أتعنين أننا متنافران؟

تصاعدت الهستيريا عبر التوتر، وصاحت:

ـ لا أصدق.. أنت لست ساذجاً فقط.. بل أحمق.. أحمق..

هذا يكفي! ولم يحاول إخفاء غضبه، ولا نفاذ الصبر الذي غمره لكلماتها المتهورة:

ـ أنت كثيرة الكلام.. أنت الحمقاء، كما أخشى! ألا تملكين عقلاً يمنعك من إثارة رجل بمثل هذه الطريقة؟

شبكت أصابعها لتمنع ارتجاف يديها، وقالت بسرعة:

ـ لم تكن هذه نيتي.. كنت أحاول فقط إقناعك أن ما تفكر به لن ينجح.. ولو بعد مئة سنة!

ـ حقاً؟

شعرت بحركة يديه خلف ظهرها، تكادان ترفعانها عن الكرسي، ثم أصبح دفء جسدها بين ذراعيه، وقال بخشونة:

ـ أيجب دائماً أن تحصلي على إثبات لكل شيء؟ يبدو أن هناك طريقة واحدة لمساعدتكِ على اتخاذ القرار.

الخوف الغريزي الصرف تصاعد فيها وهي تحاول تخليص نفسها منه.. قالت هامسة بصوت يبكي خافتاً في حلقها:

ـ لا تفعل.

لكنه لم يتوقف. ضمتها ذراعاه بالقوة نفسها التي لا تقاوم، والتي عرفتها منه من قبل، لكن دون لطف، واضح أنه ينوي العقاب لتجرؤها على تحديه.. مع ذلك فالصدمة حركت رد فعل مرتبك داخلها.. شيء بدا لها وكأنه يأسرها في فراغ مخيف، إلى أن تجاوزت مرحلة التفكير

بعقلها.

أرادت أن تدفعه بعيداً. لكنها بدلاً عن هذا تعلقت به أكثر. حين رفع رأسه للحظة، شاهد عينيها تشعان بالمشاعر، وشعر بيديها تتحركان إلى عنقه، ولم يكن هناك سوى صمت كبير، يجعلهما غير قادرين على الحركة، ملتصقان ببعضهما.

كان هناك خطر حولهما يزداد عمقاً، تقريباً دونما قدرة على احتوائه.. وكأنما أحس بهذا، فتراجع مجدداً بينما دار رأسها بدوامة وأخذ الدم ينبض بألم في أذنيها. مرتجفة، لم تستطع رفع رموشها المثقلة لتنظر إليه، لكنها أحست بنظرته، بأصابعه تعبثان بشعرها، تمسك بالخصل المشمئة.. وظنت أنها سمعت صوته يقول بهمس:

ـ يا إلهي.. يمكن أن أحبك..

تمكنت من التمتمة:

ـ ميشال..

ـ ألا زلت مصرة أننا متنافران؟

أخذ نفساً مسموعاً، وهي مستلقية ترتجف بين ذراعيه.. حاولت أن ترد، أن تهز رأسها بالإيجاب وبكل عناد، لكن لا شيء حدث. لم يكن هناك سوى قلبها يضرب متناغماً مع قلبه.. ووجدت نفسها تتعلق به وتتعلق.

فجأة، وجدته يقف على بضع أقدام منها بعد سماعه صوت اليغرا تناديه متقدمة في الحديقة، وسمعته غوين يتمتم:

ـ ألا يمكن أن توجد راحة في أي مكان!

كان الظلام قد بدأ، واليغرا لم تظهر سوى طيف يمكن تحديده، واستدار ميشال يسير باتجاهها عمداً.. ليعطي غوين فرصة تسوية روبها حولها، وموجة خجل صرف تجتاحها.. لكن بعد إن عادا إليها معاً، لم يكن في عينيه أي أثر للعطف أو الندم!

لفترة نلت حادثة البركة، عاشت غوين تكاد لا تشعر بالعالم حولها.

كل جزء حساس فيها بدا غارقاً في نوع من العذاب، وبإحساس لا يحتمل بضعفها. حتى طاقتها الطبيعية بدت مستنزفة، وكأن ميشال، وبطريقة شريرة، قد استخرجها تماماً منها، الروتين اليومي العادي مع فيليب كان أكثر مما تستطيع تحمله.. كان في داخلها وهن من المستحيل مقاومته، وبدا أنه ينعكس على مظهرها.. عيناها، حين تنظر إلى ميشال دوكوتبري في وقت تظن نفسها دون رقيب، كانتا حزينتان، مظللتان بكآبة عميقة لا قاع لهما.. وما كانت شفتاها تنفرجان إلا حين تتذكر عناقه، وترتجفان، وحين ترتعد أوصالها لهذه الذكرى، فإن سعيها للتخلص منها لا يمكن إخفاءه.

لو أن ميشال يحبها، لاختلف الأمر.. لكن عرضه لم يكن مترافقاً مع مثل هذا الإعلان، وارتجفت غوين متذكرة لهجته التي تشبه لهجة رجل الأعمال.. لماذا يريد الزواج منها؟ بكل تأكيد، زواج مدبّر، خاصة إذا كان له ارتباط وثيق مع عائلته، لن يبدو غريباً عنه، خاصة أن بنية الحياة العائلية لدى فرنسيي هذه البلاد قوية، والأكثر، إنها خلال الأسابيع الماضية التي عاشتها هنا.. فهمت هذا تماماً. طفل روي جزء من هذه الحياة العائلية، وميشال مقتنع بشكل واضح أنه بزواجه من غوين لن يعود هناك خطر بأن ينتقل فيليب من عهدته.

ربما، لو تمكنت غوين أن تنظر إلى الأمر من الزاوية المصلحية نفسها، لكان الأمر أكثر سهولة، لكنها وجدت أن هناك أشياء محددة تؤلمها كثيراً.. بدا لها أن كورين بينيت تكثر من زياراتها، وأحياناً تبقى حتى الصباح التالي، ودائماً تلازم ميشال.. أحياناً كانت اليغرا تصعد إلى النوم مع غوين، وتتركانهما مستغرقين في الحديث.. وكانت اليغرا تضحك بخبث وهما يصعدان السلم.

ـ إنها مصممة على الحصول عليه، الخبيثة. أتظنين يا غوين أنها ستنجح؟

وكانت غوين تقول متظاهرة بعدم الاكتراث:

ـ قد تفعل.. يبدو أن أخاك مولع بها.. ومؤكد أنه يجد رفقتها ممتعة، على الأقل هو معجب بها كثيراً.

ـ أوه.. بالنسبة لهذا، لن أندهش لو أنه الآن، وفي هذه اللحظات يغازلها.. لكن.. الزواج.. أتصور أن هذا أمر آخر مختلف!

لكن.. أيمكن أن يكون مختلفاً؟ فجأة تمتمت لأليغرا ليلة سعيدة، واتجهت إلى غرفتها.. لماذا كلما فكرت به وهو متزوج بامرأة أخرى، لا تحس سوى بالألم؟ كورين لا بد وأن تكون مناسبة بأية طريقة كانت، إضافة إلى أنها، وهذا أمر بيّن، راغبة في هذا.

تصرفات كورين نحو فيليب هي التي كانت تسبب لها الشكوك الكبرى.. فواضح أنها لا تكن له الحب، ولو أنها قادرة على الادعاء بحنان وبهجة حين يكون عمه موجوداً.. لكن ما إن شاهدتها غوين فجأة، ودون توقع، في الحديقة مع الطفل، حتى أدركت أنها على الأرجح تكرهه.

إحدى الفتيات العاملات في المنزل، أخرجت فيليب ليلعب، وهذا روتين يومي أدرجته غوين، حتى جانيت أصبحت الآن تصر عليه حين لاتكون غوين موجودة.. ذلك الصباح خرجت غوين لركوب الخيل مع بيتر وأنطوان، الرجلان المسنان اللذين التقت بهما في ذلك اليوم المليء بالذكريات قرب البحيرة. تمرسها بالركوب كان قد تحسن كثيراً، وثابرت على الخروج في الصباح الباكر، لكن ميشال كان يصرّ على أن لا تخرج لوحدها، وأمر الرجلين بأن يرافقاها، أشاءت هذا أم لا. وما إن تعرفت إليهما جيداً، حتى وجدتهما على استعداد للحديث عن بلادهما، خاصة بيتر الذي أثبت شغفه بالمعرفة.

بعد قضاء ساعات ممتعة، تراقب الرعاة، يعملون مع قطعان الثيران، عادت إلى المنزل باكراً.. فقد كان هناك حيوان مريض اضطر الرجلان إلى الاتجاه نحو المراعي لإعادته إلى المنزل.

«المعلم» كان غائباً ذلك الصباح، كما قال الرجال، لذلك أعطت

غوين نفسها وقتاً أطول من المعتاد، دونما خشية من مصادفته.. وكانت قد اكتشفت، أن تجنبه أمر سهل، ما عليها سوى البقاء لوقت أطول في غرفتها كي لا تراه عند الفطور، وهي وقت الغداء تجد نفسها قادرة على مواجهته دون عناء.

هكذا، ما إن وصلت المنزل حتى أسرعت إلى الحديقة.. وكان فيليب قد أخذ يتعلق بها، ويحب أن تكون إلى جانبه.. على الأقل، بدأت تمثل شيئاً في عالمه الصغير.. شخص يضحك معه حين يرغب أن يتصرف بسخافة.. شخص يتعلق به حين يتأذى أو يتألم أو يشعر بالحزن. في الوقت نفسه، ولمعرفتها أنها ستتركه يوماً، كانت تتجنب أن تتركه يعتمد كثيراً عليها، بتوازن دقيق، وهذا أمر، مع طفل صغير، صعب التحقيق.

قبل أن تصل إلى مكانه المعتاد، سمعته يبكي، فتوقفت خائفة قبل أن تركض نحوه، إذ لم يبدُ لها البكاء المعتاد نفسه حين يعاني قليلاً من التعب.. بل كان عويلاً مرتفعاً غاضباً. فجأة، وعند المنعطف التالي، توقفت بحدة، كيانها كله يسبح في غضب عارم. كانت كورين هناك، تمسك بفيليب، تهزه، تصرخ غاضبة، والطفل مذعور بشكل واضح.

سمعت غوين صوتها المميّز يرتفع عالياً بعد أن وصلتهما في لحظة:

ـ توقفي عن هذا.. وانزليه!

وشدت فيليب من يد المرأة، دون أن تزعج نفسها بالكلام باللغة الفرنسية، مع أنها تعرف أن كورين لا تجيد الإنكليزية كثيراً. ولو أنها لم تفهم ما قالته لها، فتعابير وجهها لا تحمل مجالاً للخطأ.. وصاحت، تضم جسد فيليب المرتجف إليها:

ـ أنتِ حقيرة..! ولا شيء بالتأكيد يبرر هزك له هكذا!

ردت كورين غاضبة:

ـ لقد قطع لي عقدي.. لم يقبل بأن يتركه!

ـ لا يمكن أن تتوقعي منه أن يفهم هذا..

قاطعتها كورين بازدراء:

ـ إنه كبير بما يكفي.. ! ولا تدّعي أنكم في بلادكم لا تعاقبون الأطفال.

ـ حسن جداً.. أنا آسفة سيدتي!

صوت غوين عاد إلى هدوئه، بعد أن حاولت جهدها السيطرة على نفسها. ربما، كما تقول كورين، كانت تفتعل ضجيجاً على لا شيء. فليس من الجرم أن تهز طفلاً حين يتصرف كالشرير. لكن فيليب صغير جداً.. وبكل تأكيد يمكن مسامحته على هذا الأساس.

فجأة، وأمام نظرات غوين المرتبكة، تلاشى غضب كورين وخمدت كما يخمد البالون المنفوخ حين ينفّس.. وشهقت:

ـ وأنا آسفة أيضاً. أعرف أنني ما كان يجب أن أفقد أعصابي، لكنني أقسم أنني لم أضربه.. وأنا واثقة أنه يفتعل ضجيجاً لا لزوم له.

هزت غوين رأسها بكآبة، إذ لا يبدو أن هناك الكثير تفعله، لكنها لم تستطع أن تخلص نفسها من الشك في أن كورين لا تحب الطفل، ولا تحب أي نوع من الأطفال، وربما هذا ما يفسر سبب عدم إنجابها.. وقالت لها:

ـ سأعود به إلى غرفته سيدتي!

في غرفته، سرعان ما هدأ، ورأت بوضوح أنه لم يصب بأذى، وأنه أصيب بذعر مفاجيء فقط . لكن ارتباكها الخائف كان من نوع آخر.. فلو تزوج ميشال هذه المرأة، فما مصير فيليب؟ لم تكن هذه فكرة جديدة، لكن، حتى هذا الصباح، مضامينها الكاملة لم تصعقها إلا بعد أن شهدت ما حدث. كورين امرأة جميلة، من عائلة محترمة، وفاتنة حين تريد. ولن يصدق أحد يوماً أن لها ميول غير مستقرة قليلاً.. وأنها قد لا تكون ذلك الشخص المؤتمن بالكامل على طفل صغير.

ـ هل تكدّر الطفل يا غوين؟

استفاقت من أفكارها، واستدارت لتواجه ميشال الواقف بالباب

يراقبها.. كانت تظنه في «موروني»، قال الرعاة إنه ذهب. ولا بد أنه عاد باكراً.. فكم يا ترى شهد؟ أجابت متكتمة تنظر إلى فيليب النائم:

ـ لا شيء.. سيدي.. الحرارة والتعب أرهقاه فوضعته لينام. لا شيء حقاً.

لكنها لم تكن تدرك أن حالة قميصها المتجعد المبلل بالدموع تحتاج إلى تفسير آخر.. واشتد ضغط شفتيه وهو يجيل نظره فيها:

ـ قالت جانيت إن كورين أخذته إلى الحديقة.

ـ أظن حرارة الشمس أتعبته.

أطال نظره إلى الحمرة الخفيفة التي لونت خديها.

ـ هكذا إذن.. يبدو أنه كان يبكي.. ربما لم يكن يرغب في الدخول باكراً.. والمربية المتمرنة قد تفرض النظام بقساوة أحياناً عزيزتي.

ـ لكن المسألة ليست هكذا..

ثم صمتت، الكلمات ترتجف على طرف لسانها، كلمات لم تستطع إطلاقها.. في البداية منعتها اليغرا من الكلام.. والآن جاء دور كورين! لكن هل هي مدينة لأي منهما بالولاء؟ لا تظن هذا، لكن كيف لها أن تغير طبيعتها؟ فلو كشفت سرهما ستشعر بالبؤس، ثم كيف تعرف أن ميشال سيصدقها؟ تمتمت بغباء:

ـ أعني.. أنني كنت واثقة أنه بقي في الخارج ما يكفي.

ـ ألأنه كان يتمتع برفقة كورين؟ لم أستطع التصديق أنك كنت فظة مع ضيفة لي.. إنها متكدرة جداً.

ـ سيدي..!

ـ نعم؟ أليس لديك صدق المشاعر لتبدي قليلاً من الخجل؟ انطباع الطفل البريء لا يناسبك.

حاولت النظر مباشرة إلى عينيه:

ـ ليس لك الحق في الحكم عليّ.. أنت تتهمني دون دليل!

لمعت أسنانه، لكن دون ابتسام.

ـ أنا لم أنس بعد غوين.. أنت لم تعطني أي حقوق حتى الآن.. لكن هناك أخريات عزيزتي، لن يترددن أبداً.

ـ تعني امرأة ما؟ سيدة محددة لا تريدني أن أغضبها؟

ابتسم متسلياً:

ـ بإمكانك قول هذا.. لكن لا تدعي هذا يقلقك عزيزتي.

دونما اكتراث، وبينما هي ساخطة، مد يده وجذبها إليه.

ـ أحياناً أجدك مثيرة جداً يا عزيزتي. وفي الوقت نفسه لا أحب أن أراك هكذا.

وقبل أن تتمكن من الحراك، امتدت يده إلى خصلة شعر رطبة متدلية، لتجمّد أصابعه أي احتجاج كانت ستبديه.. رأت في وجهه حنان رجل نافذ الصبر ممزوجاً مع برودة مقصودة، وأكمل ساخراً:

ـ أتوصلين نفسك عادة إلى مثل هذه الحالة لأجل طفل صغير؟ ألا تظنين الوقت خان لأن تضيعي بعض هذه المشاعر الرقيقة على رجل؟

غمق لون عينيها وأصبحتا زرقاوتين قاتمتين، كلون السماء عند الغروب. ولم تشعر سوى برغبة في أن يدعها بسلام.. أصابعه تطوف على مؤخرة عنقها بنعومة، دون أن يحاول سحبها. قال بتركيز منخفض الصوت، وعيناه في عينيها مباشرة:

ـ عزيزتي، أيجب دائماً أن ترتدي مثل هذه الثياب المتعبة؟ يا إلهي.. لو كنتِ لي، لكنت حرقتها كلها، واشتريت لكِ ما ستبدين فيه ساحرة تماماً!

عاد اللون يصبغ وجهها، وانحبست أنفاسها، وبرقت عيناها.

ـ لكنني لست لك!

ـ لم تصبحي بعد، لكنني أعتقد أنها مسألة وقت قصير قبل أن تصلي إلى قرار!

ـ قلت لك دائماً..

ـ أذكر كل شيء قلته لي يا عزيزتي لكن الكلمات نادراً ما تفي

بالمطلوب.

أصبحت أنفاسه الآن على خدها، بينما أخذت يده تتلمس النبض المتسارع عند أسفل عنقها، تلميحاته كانت واضحة المعالم بحيث لم تستطع الادعاء بإساءة فهمها.. أحست بنفسها وكأنها كتلة هشّة عاجزة عن معرفة نفسها.. غير قادرة على منع نفسها من السعي للالتصاق به.. وصاحت:

ـ كم أكرهك!

اشتدت قبضته عليها، تؤلمها للحظة أخرى، قبل أن يتركها فجأة.. وقال ساخراً:

ـ الأفضل أن تذهبي لتغيري ملابسكِ، استعداداً للعشاء، إذا كنت لا زلت مصممة على لعبة السلامة هذه.. هل أرافقك إلى غرفتك؟ المنزل هادىء جداً.

بدا لها أن الوميض الشيطاني في عينيه يقول: «لا يوجد أحد هنا، ومع أنك تدعين العكس، إلا أنني أراهن على عجزك عن المقاومة!»

يمكن أن يكون على حق.. يمكنها أن تعترف، فلأول مرة في حياتها، تجد نفسها تهاب مواجهة رجل يسعى إلى استغلال عواطفها.. فاستدارت هاربة.

في غرفتها، أمضت الوقت تغسل وجهها الساخن، وتفتش عن قميص نظيف، وعبثاً حاولت كبح جموح ذهنها عن التفكير به.. كيف يجرؤ على السخرية منها؟ لا يمكن أن يكون راغباً في الزواج من فتاة يهينها على هذا النحو! ما قاله سيّء بما يكفي، لكن ما ألمح إليه قد يكون أسوأ... تساءلت بجنون، أيعبّر بهذا عن رأيه العام بالنساء، أم بها فقط؟ وربما استحقت هذا.. استحقت قلة احترامه؟ لا بد أنه عرف بأنها باقية هنا ليس بسبب الطفل فقط..

لاحظت غوين طوال الوجبة، كيف أن عينا كورين كانتا تلمعان بالكراهية وهما تنتقلان من ميشال إليها، ولاحظت كذلك، وبرضى

واضح، أنهما لم يخاطبا بعضهما كثيراً. بوجه عام، أحست بالراحة حين انتهت الوجبة وتمكنت من الاعتذار.. كان الرجلان قد قالا لها حين تركتهما في الصباح، إن الرجال سيروّضون بضع فحول صغيرة ذلك اليوم، ولا تريد أن يفوتها مثل هذا المنظر.

بقيت مع فيليب حتى الرابعة تقريباً، ثم تركته يلعب سعيداً مع خادمتيه الشابتين. وركضت نحو الحظيرة حيث كان الرعاة قد بدأوا العمل.. وتسلقت بشوق إلى أعلى سور خشبي لتتفرج.. فحول صغيرة لا يزيد عمرها عن الثلاث سنوات، التقطت من المستنقعات وجيء بها إلى هنا، حيث وضعت فوق ظهورها السروج لتعتاد على وجود الناس قبل محاولة ركوبها لأول مرة. إنه عمل صعب، وخطير، فالحيوانات كانت تعرف بالغريزة أنها لن تعود مرة أخرى لحريتها الأصلية، فأخذت تثور، وتتطاير حوافرها إلى الأعلى بجنون لدى اقتراب أحد منها.

كان بيتر، الذي أصبح ظل غوين المخلص، يعطيها شروحات سريعة عما يجري، يشجعه على ذلك الحماس على وجهها.. وأصغت بانتباه، كل اهتمامها يثور فوراً حين يُخرج أحد الرعاة جواداً جديداً غير مروّض يمسكه بحبل طويل.. وراقبت عن كثب كيف يعمل الرجال بحذر، كيف يدفعون بالفحل الفتي إلى التعود على السرج.

ـ هل أنت مهتمة إلى هذه الدرجة آنستي؟

في البداية، ظنت أن المتكلم هو بيتر، إلى أن دخلت اللهجة المختلفة إلى ذهنها المستغرق.. لم تحتج للاستدارة لترى من يقف خلفها. وقفزت نبضاتها متسارعة، حتى وهي تحدّق بثبات أمامها.. لقد أملت بشدة أن لا يلحق بها إلى هنا، ولفترة قصيرة، كانت منشرحة تماماً لأنه لم يكن هناك.. لكن كان يجب أن تعرف أنه سيصل.

سمعت نفسها تقول دون تفكير:

ـ لماذا تبدو مصمماً على إجفالي اليوم؟

* * *

٨ ـ رحلة إلى قلب الموت

ما إن تكلمت غوين حتى احمرّ وجهها.. ما قالته يبدو ساذجاً، لكن أيجب أن يرتفع حاجباه بهذه السخرية؟ أطلقت نفساً مكتوماً لا علاقة له بالغبار المتطاير، تعني أنه ينتظر نوعاً من التفسير:

ـ لم أخطط لشيء سيدي.. جئت إلى هنا مندفعة.

ارتفع حاجباه أكثر، وقال يوبخها بسخرية:

ـ لا حاجة لاختراع الأعذار لتحركاتك يا طفلتي.. وفري عليّ هذا! لو ذكرتِ أنكِ ترغبين في المجيء إلى هنا اليوم، لأتيت بكِ بنفسي.

ابتلعت ريقها، تركز نظرها دون أن ترى على نقطة ما تحت كتفه:

ـ لا أستطيع ذكر كل شيء لك سيدي. إضافة إلى هذا، كنت تتحدث مع السيدة بينيت، وتصورت أن لك خططاً أخرى لبعد الظهر.

تجاهل ما قالت، مع أن فمه اشتد عند الزوايا وهو ينظر إليها:

ـ لماذا لا تستطيعين أن تكوني في مستوى عمركِ! أيجب دائماً أن تتصرفي وكأنك طفلة مجنونة، تجلسين في الغبار وكأنه رمال على الشاطىء! ما أنت بحاجة إليه حقاً، هو شيء من الانضباط.. وفي يوم ما، حين ينفد صبري..

كان صوته منخفضاً، ولم تحتج غوين لأن تنظر إليه لتعرف أنه غاضب.. بسخط متهور، ردت:

ـ تبدو وكأنك أب متسلّط، سيدي!

www.liilas.com

ـ منذ لحظات ناديتني ميشال!

رفرفت رموشها بقلق:

ـ هذا فقط، لأنك أفقدتني صوابي!

وكأنما يعي وجود آذان أخرى تصغي، تكلم بصوت منخفض متوحش:

ـ والآن تختارين أن لا تنظري إليّ!

بكل تأكيد، يجب أن لا يغضبه مطالبتها له أن يكون لبقاً معها.. استدارت عيناها إليه، وكأنما جذبهما غضبه، تعلقت نظرتها بدهشة مفاجئة بقميصه ذي المربعات الملونة.. لم تلاحظ من قبل أنه يرتدي ثياباً كثياب رجاله، وواضح أنه لا يرتدي هكذا للمتعة فقط.. ربما ينوي ركوب إحدى هذه الحيوانات الثائرة، المزمجرة، الساخطة!

ـ غوين!

أجفلتها لهجته الحادة.. فشهقت «آسفة» وفي صوتها ظلال خفيفة من دفاع مهزوز.. وأكملت:

ـ لكنني أنظر إليك كما طلبت.. إذا كان هذا ضرورياً؟

صرّ على أسنانه:

ـ يا إلهي! أنت تظهرين أمام رجالي ببنطلون جينز ضيق لا يترك شيئاً للخيال! وتجلسين فوق السور وكأنك صبي صغير، دون اهتمام بما قد يفعله الغبار والوحل لبشرتك! لو كنت لي آنستي..

قاطعته:

ـ لكنني لست لك!

شعرت أن هذه مسألة يجب التأكيد عليها فوراً.. ورد عليها:

ـ ليس بعد!

ـ سيدي..؟

تقدم منه رئيس عماله يسعى إلى النصيحة، فاستدار عن غوين يترك ذراعها، فحدّقت به مكرهة، كل عرق فيها ينبض، وتقدم ميشال نحو الجياد بينما يقول لها آمراً:

ـ ابقي هنا، ولا تتحركي إلى أن أنتهي، لن أتأخر، وسنعود معاً إلى المنزل.

بحذر متمرد استمرت تنظر إلى جسده الطويل الأسمر يبتعد.. كان أطول بكثير من معظم رجاله، وأقوى بنية، مع أنه كان يتحرك بخفة تماثل خفة أكثرهم شباباً. دون وعي، ارتفعت أصابعها إلى ذراعها، حيث كانت يده تلامسها، تتذكر كيف عانقها قبل الغداء.

خلال دقيقة، أبعدته خطواته الواسعة عنها إلى الجهة الأخرى من الحظيرة المكشوفة، حيث ابتعد عن نظرها وسط معمعة الحيوانات، والغبار، والرجال.

أول جواد شاهدته كان مسرجاً ويسير بهدوء مجروراً بلجام طويل.. حان الآن وقت تجربة امتطائه. شهقت غوين بحدة وهي تصغي إلى صيحات التشجيع، بعد أن نجح الرجل الأول في البقاء فوق السرج.. وضاع الجواد والفارس في ضباب من الغبار أثارها وقع الحوافر المذعورة. ولمع جسد الفحل المذعور عبر الهواء، وهو يحاول بكل حيلته التخلص من راكبه، أخيراً فاز المروّض المحنك، في معركة كبح المزاج المتمرد للجواد وفرض إرادة تهجينه عليه.

بقي ميشال حيث هو لمدة أطول، وهذا ما أراح غوين لرغبتها في البقاء أيضاً. حين تمكن أحد الفحول من رمي رجلين عن ظهره، امتطاه بنفسه.. شعرت غوين بالقلق، وتبللت راحتا يدها بالعرق وهي تمسك بالحاجز الخشبي، غير قادرة على إخفاء عمق خوفها.. كانت تعرف أن ميشال دوكويبري فارس ماهر، واستطاعت الآن أن ترى أنه متفوق، مع ذلك لم تتوقف عن الارتجاف، لخوفها على سلامته.. الحيوان وقد انتصر حتى الآن على رجلين، كان واثقاً من نفسه ومن قدرته على التخلص من الثالث، فأخذ يتراجع ويثب في الهواء مصرّاً على تحقيق هذا الهدف.. مستحيل..! بعد لحظات من توتر الأعصاب والتشنج الواضح على وجوه الرجال الذين ظنوا أن النصر سيكون في متناول الجواد، وبينما كانت غوين تحبس أنفاسها..

هدأت ثورة الجواد ومشى الهوينة خاضعاً لمشيئة مروّضه . . حينها ترجل ميشال بهدوء وكأنه كان في نزهة متكاسلة، فعلا الصياح والتهليل من الجميع . بينما كانت مشاعر القلق تنهش في صدر غوين حول خطر، بالنسبة له، لم يكن موجوداً .

لكن، يبدو أن الخطر موجود . . لكن ليس لميشال . . بل لها، فحل آخر، تمكن من رمي فارسه، وانطلق من عقاله، وقبل أن يتمكن أحد من لجمه، كان يهجم بجنون على الحاجز الخشبي الذي كانت تجلس عليه . الأحداث تتالت بومضة بصر، لم تعد غوين تذكر تفاصيلها، كل ما تذكره أنها كانت تجلس بارتياح، تنظر بمرارة إلى ميشال دوكوبري، وفي اللحظة التالية، كانت مستلقية على ظهرها وتظللها غمامة من الغبار والحوافر الواثبة فوقها . . !

لا يمكن أن تكون قد تأذت . . مع أن أنفاسها كادت تنحبس في صدرها . فقد وقعت إلى الخلف، كل جزء منها يرتعد، صرخة رعب ودهشة أفلتت من شفتيها كالأنين . . اصطدمت بالأرض الصلبة بصوت خافت مسموع، واستلقت للحظات غير قادرة على الحركة، كومة نحيلة متكدرة فوق التراب الجاف، وشظايا الخشب المكسور تتساقط حولها .

ـ يا إلهي !

من بعيد سمعت ميشال يصيح بغضب، وحاولت فتح عينيها على الفور، وكأنما لتطمئنه، إنها فقط . . لكن النطق تملص منها بغباء . . لا زالت تتنفس ! هذا ما تأكد منه ميشال أولاً . . أكثر من هذا ! على أي حال، ليس هناك شيء يبرر كيف أخذت يداه تتلمسان جسدها دونما حرج . ثم حملها، يضمها إليه بقوة، ارتابت بأن تكون السبب في إيذائها أكثر من الوقوع .

همس في أذنها بشدة وهو يحملها نحو المنزل .

ـ أمّا أنتِ، فبإمكانك فتح عينيك، فأنا واثق أن إصابتك ليست من النوع الذي لا يمكن إصلاحه . . تستحقين سماع كل ما قلته وما سأقوله لجلوسك

على ذلك السور العفن . . يا إلهي ! يجب أن أتفحص عقلي لسماحي لك بالبقاء هناك ! لكن، أيجب دائماً أن تقعي في المتاعب يا آنسة ؟

همست، بصوت ضعيف، ليس من الإصابة التي استبعدها عنها، بل للصدمة والخوف :

ـ أنا آسفة .

كل ما تحتاجه الآن هو السلوى بين ذراعيه، ولو لدقائق أخرى، ومع أنه لا يشعر بالإشفاق الحقيقي عليها، فإن نبضات قلبه المتسارعة كانت تصل إليها ممزوجة بحرارة جسده المتصبّب عرقاً والمشبع بالغبار . . دونما تعقل، تمنت لو أن المنزل يبعد أميالاً . . قد يكون وقوعها قد أذهب كل أنفاسها، لكنه كذلك أذهب كل مقاومتها، وتركها ترتجف غير قادرة على إخفاء مشاعرها الجيّاشة، وتأوهت، تضغط وجهها الحار على صدره العريض :

ـ أوه . . ميشال !

أمرها متجهماً :

ـ اجمدي . . ربما أصيب رأسك . . الطبيب . .

صاحت :

ـ لا . . لا . . لست بحاجة إلى طبيب . . انزلني، أستطيع أن أسير .

لكن، في الحال، دخلا المنزل، وكانت كورين هناك، الحدة في نظراتها والشك ظاهر على وجهها . . شاهدت غوين نظرتها فوجدت فيها الكراهية، والحذر مع عدم تصديق صريح .

دوت ضحكة كورين وهي تشاهد ميشال يضع غوين بلطف فوق الصوفا، وصاحت :

ـ يا للسماء ! ماذا فعلت غوين هذه المرة ؟

لم يرد ميشال عليها، حتى أنه لم يهتم بها أبداً وهو يمسح شعر غوين الأشقر عن جبينها الشاحب . . ويتمتم بشكل مبهم :

ـ أيجب أن أفعل هذا دائماً ؟ ألن تتعلمي العناية بنفسك ؟

تحركت غوين تحت حدة نظرته المتفحصة لوجهها الأبيض الشاحب،

لكن قبل أن تتكلم، تدخلت كورين ثانية:

ـ أيسمح أحد بأن يقول لي ما الذي حصل للآنسة كرايجر؟

رد عليها بحدة، يتجه إلى إبريق الشاي الكهربائي ليصب لها فنجاناً:

ـ لقد وقعت عن سور الحظيرة.. وكان من السهل أن تقتل.

امتلأت عينا كورين بالامتعاض:

ـ حسناً.. وماذا تنتظر من غريبة مثلها عن طرق عيشنا؟

ـ هذا يكفي كورين!

وضع فنجان الشاي في يد غوين، بدلاً من محاولة وضعه على فمها كما كان ينوي أصلاً.. بدا أنه قد ردع اتهامات كورين بقسوة.. لكن غوين رأت من عبوسه أن هناك شيئاً يتجاهله.

بصعوبة وقفت، ممتنة لظهور جانيت في تلك اللحظة عند الباب..

قالت وهي تشعر بدوار خفيف:

ـ لو عذرتني ميشال.. أود الذهاب إلى غرفتي.

صعدت جانيت معها، بأمر من ميشال، بينما بقي مع كورين، يحدق بفنجان الشاي الذي تركته غوين دون أن تلمسه.. وأقنعت غوين نفسها، بينما كانت جانيت تساعدها لتصعد السلم، أنها لا تستطيع لوم كورين على تصرفها.. لكن من الواضح أن ميشال قد سئم من تصرفاتها، نظراً لما قاله وهو يحملها إلى هنا.. كما بدا واضحاً أنه سعى إلى تهدئة ريبة كورين، بأن لا يرافق غوين، ولو حتى إلى باب غرفة الجلوس.

تواصل صداع غوين لما تبقى من اليوم، لكن بعد نوم ليلة مريحة، شعرت أنها أفضل حالاً بكثير، ما خلا الألم العميق في قلبها.. وفي أطرافها.. ألم أطرافها كان متوقعاً.. وابتسمت تؤكد هذا حين دخلت جانيت بالقهوة الصباحية وسألتها كيف حالها.. لكن غوين لم تذكر حالة قلبها.

بعد بضعة أيام، سافر ميشال إلى باريس، نتيجة مخابرة هاتفية من وكيله.. قال وهو يهز كتفيه قبل أن يرحل:

ـ يبدو لي أنهم لا يستغنون مطلقاً عن وجودي هناك.

واضح أنه كان يخاطب النسوة الثلاثة معاً، لكن نظره كان موجهاً إلى غوين، يتطلع إلى شعرها الأشقر اللماع، وشحوب خديها، وهي تقوم بجهد لا لزوم له لتحريك السكر في قهوتها.. وعبس فجأة قائلاً:

ـ يبدو أنك بحاجة إلى بعض الهواء النقي يا عزيزتي.. قلت لك من قبل، إنني لن أسمح لك بإرهاق نفسك لأجل الطفل!

ـ بالتأكيد لا.. سيدي.

أحست، بطريقة غريبة، أنها تود البكاء بدلاً من أن تتمنى له سفراً سعيداً كما فعلت اليغرا، أو الوقوف عن طاولة الفطور والتقدم لتقبيله كما فعلت كورين.. وقال ممازحاً بسخرية، وهو يمر قرب كرسيها:

ـ لا شيء منك آنسة كرايجر؟

ـ مع السلامة.. كان الأمر سيختلف لو أنك ستغيب سنتين.

متعمدة، جاهدت لأن تظهر عدم اكتراث كامل، مع ذلك لم تستطع النظر إليه.

أثناء غياب ميشال، خرجت اليغرا من المنزل، وبعد الغداء، اقترحت كورين أن ترافقها غوين إلى بحيرة في الجوار على درجة كبيرة من الشهرة تحيط بها الجنائن الطبيعيّة وتتشكل فيها محميّات لأنواع نادرة من الطيور، وتعتبر معلماً من معالم البلاد السياحية.

قالت كورين بحماس، وبلهجة محببة:

ـ يجب أن تريها قبل عودتك إلى بلادك.

ترددت غوين، فسارعت كورين تقنعها:

ـ ألم يقل ميشال إنك بحاجة إلى هواء نقي؟ وأنا موافقة معه يا عزيزتي، شحوب وجهك يقلقه! في البحيرة طيور الفلامنغو التي تعشش في مستوطنات فوق جزر صغيرة.. ستحبينها.. منظرها رائع!

بالرغم من حماس كورين الدرامي.. هيمن على غوين تردد غريب لا تعرف له سبباً.. لكن، ألم تكن كورين لطيفة جداً معها طوال الأسبوع،

خاصة هذا الصباح؟ حتى أنها توهمت أنه من المستحيل أن تكن لها كورين الكراهية، ومن غير الإنصاف، الحكم على شخص من دليل أو اثنين عبر حادثة معزولة عن الأخرى. . كما أن غوين لا ترغب في أن تظهر بمظهر الحقودة.

فكرة الاستكشاف كانت مغرية. . تذكر مرة أن ميشال ذكرها لها. . بل أنه وعدها بأخذها إلى هناك بنفسه، لكنها تشك في أن يجد الوقت لهذا. . قالت بينما يتابها نزاع بين مُوقفين:

ـ لكن. . ماذا عن فيليب؟

سخرت منها كورين بمرح:

ـ وماذا عنه عزيزتي؟ ستقوم جانيت بكل ما هو لازم وهي تحبه. . ثم، وبما أن الطقس حار جداً، وميشال غائب، قلت لها أن لا تحضر العشاء، وأن شيئاً خفيفاً بارداً سيكفينا. . لذلك لا يهم متى سنعود.

وافقت غوين، تعلم أنه لم يبقَ لها أي عذر، وانضمت إلى كورين في سيارتها. بعد القرار، كانت كورين مستعجلة لتنطلق، مؤكدة لغوين أنه ليس من الضروري أخذ سترة معها.

أخذت كورين تشرح لغوين حول معالم المنطقة وخصائصها، وبدا أنها على معرفة واسعة بها وأشارت إلى أن مستنقعات الماء الحلو، بشكل خاص، توفر أرض التعشيش لآلاف من أنواع الطيور المختلفة. كانت أعواد القصب تبدو نحيلة رقيقة. . وهناك تتواجد طيور النورس مع العديد من أنواع البط والطائر الغائص في الشتاء.

ضحكت كورين:

ـ لكن. . على المرء أن يكون حذراً. . فهذه المستنقعات كذلك مثالية لصديقنا القديم الخنزير البري.

أكملت كورين قيادتها عبر الطريق الملتوي بسرعة، وعبر أماكن لم تكن معالم الطريق واضحة فيها أبداً. . . وتتطلب مهارة وتركيزاً.

وظنت غوين أن كورين تطير حماسة لهذه الرحلة!

سيطر على غوين الارتباك أكثر من أي وقت آخر. . وساعد على تشوشها أنها فقدت كل إحساس بالاتجاهات، بعد وقت قصير وبارتفاع حرارة الشمس، بدت السيارة الصغيرة كالفرن. ولم تكبح تنهيدة مسموعة بالارتياح حين توقفت كورين.

صاحت متألمة من تصلب ساقيها، حين كادت تقع من باب السيارة، وثيابها تلتصق بجسدها من شدة الحرارة. . هزت كورين كتفيها، عيناها تتململان وجه غوين الساخن.

ـ حرارة الشمس لا تزعجني، فأنا معتادة عليها يا عزيزتي، فأنا أعيش هنا طوال حياتي.

وهذا يعني أنك على عكسي! وفهمت غوين الرسالة بوضوح. لكنها كبحت رداً حاداً. بطريقة ما، كورين على حق. . وليس هذا بموضوع يستحق الخلاف! . . ثم، فات الوقت للتساؤل حول حكمة المجيء معها إلى هنا. . ومن الأفضل أن تحدّ من نشاط مخيلتها! فلن تجرؤ كورين على أذيتها.

كانت السيارة متوقفة، ومقفلة، فوق أرض صلبة، وانطلقتا على ضفاف مستنقع. . اضطرت غوين إلى الاعتراف بعد وقت قصير، أن كورين دليل حاذق. . بدا وكأنها تمتلك معيناً لا ينضب من الطاقة، وسرعان ما وجدت العديد من الأعشاش. وبما أن الوقت كان ربيعاً، فقد امتلأ الجو بأصوات الطيور، وسرعان ما اعتادت وحشة المكان وانعزاله، بينما أخذت كورين تسمي الأنواع المختلفة وتشير إلى روعة بنية بعض الأعشاش.

مرّ وقت طويل قبل أن تكتشف كورين أنها نسيت سلة الطعام. كانتا قد وصلتا إلى قرب ضفاف البحيرة، حين قررت كورين أن لا تتقدم أكثر من هذا، دون أن تشربا شيئاً. . وصاحت بشكل ساحر، حين عادتا إلى السيارة لتكتشفا ما حدث:

ـ كل هذا غلطتي! أكاد أجف من العطش!

ـ لا بأس، لا يجب أن نهتم. . وسيكون من الأفضل أن نعود إلى

المنزل.

صاحت كورين:

- بالكاد الساعة تقارب الرابعة.. لا زال هناك الكثير لأريك إياه، خاصة، وكما قال ميشال، سترحلين قريباً إلى لندن. انتظري هنا.. سأعود إلى المزرعة لأحضر الشاي. وحدي سأسرع أكثر، وسأعود بعد نصف ساعة، لا أكثر.

بنظرة ارتياح نادمة، نظرت غوين إلى السيارة المبتعدة. كورين لا تقبل الرفض أبداً، معلنة أن الغلطة غلطتها بالكامل وإنها لا تعترض على الإزعاج الذي ستتكبده. ولم تصرّ غوين على الاعتراض، بعد أن تلاشت رغبتها في العودة.

استقرت غوين تحت ظل شجرة حور، تستعد للانتظار.. لقد قالت لها كورين أن لا تتجول لوحدها، ولأول مرة لم تشعر برغبة في العصيان.. يبدو أن الحرارة جعلتها متعبة، وتثاءبت، قانعة بأن تراقب رفاً من طيور الفلامنغو من بعيد، ينطلق من على سطح البحيرة.

فيما بعد، لم تعد تذكر اللحظة المحددة التي غفت فيها، لكنها ستبقى تذكر كم آلمها تشنج عروقها حين استيقظت بعد حوالي الساعتين.. وكم أحست بالخوف حين أدركت أنها لا تزال لوحدها، ولا أثر لكورين ولا لسلة الطعام.. للحظات طويلة، بقيت حيث هي، مقطبة، تحاول التفكير بما يمكن أن يكون حدث.. أمن المعقول أن يكون قد حصل لكورين حادث ما، وهي تقود بمثل سرعتها؟ نظرت إلى ساعة معصمها، إنها الآن ما بعد السادسة، وكورين غائبة منذ الرابعة.. وقد يكون هناك تفسير آخر بالطبع، لو أن لديها وقت لتفكر، لكن شيئان أو أكثر كانا واضحان لها تماماً.. لو أن حادثاً حصل لكورين، لا شك ستخبر أحداً عنها، وسيحضر الرجال من المزرعة إلى هنا بسرعة.. لكن ما من أحد يمكنها أن تراه على مدى النظر.

انتظرت لنصف ساعة أخرى، قبل أن تقرر المسير. بدا لها واضحاً جداً، أن كورين أو أي نجدة من أي نوع، ليست قادمة، ومن الجنون البقاء

هنا حتى الظلام. نظرت حولها، وهي تقف، باستياء، إلى حيث كانت جالسة.. لا تظن أبداً أنها ستنسى يوماً هذه النصف ساعة التي مرت بها.. ولقد ساعدها تركيز تفكيرها على أن تنسى وخزات الخوف الغريبة التي تسللت إلى عمودها الفقري، وجعلتها ترتجف.

ترددت للحظات، فليس لديها فكرة عن موقعها الصحيح أو الاتجاه الذي يجب أن تسلكه.. كان الهواء لا زال ساخناً، لكن بشرتها رطبة باردة، وهي تعي ببطء كيف يكون الأمر لو اضطرت لقضاء ليلة هنا في العراء، ولوحدها.. شاهدت، بارتياح، آثار إطارات سيارة كورين.. وتبعت الأثر لجزء أكبر من الميل، إلا أنها تلاشت أخيراً بوصولها إلى أرض أكثر جفافاً.

مع هذا، وفي محاولة لاستخدام بعض التفكير السليم، تابعت غوين طريقها، مبقية الشمس إلى يمينها وهي تسير.. الصدمة الأولى زالت، لكن بعد أن تركت أثراً كبيراً في نفسها. شعرها كان رطباً، يلتصق بوجهها، والعرق بلل قميصها الرقيق، الذي أصبح مجعداً ومتسخاً.. بنطلون الجينز، والحذاء، كانا مليئين بالوحل إثر سقوطها في مستنقع، وحدقت فيهما متسعة العينين، تحس براحة هستيرية لأن عينا ميشال دوكوبيري، السريعتان في اكتشاف العيوب، لا تريانها الآن.

ببطء شديد، وعت أن كل شيء من حولها أصبح أكثر هدوءاً. بتقدم الليل، توقفت الطيور عن الزقزقة. ولم يكن حولها سوى صوت الريح يتلاعب بقمم الأشجار.. رؤوس الأشجار كانت تلمع بأشعة الشمس الغاربة، والنور المتألق ينتقل من ورقة إلى أخرى، يتراقص بين الأغصان قبل أن يخمد ما بين ظلال الشجيرات الصغيرة الخضراء، والعشب الكثيف المتنامي. ثم أحست بنوع جديد من الأصوات حولها، وبظلال تمدد نفسها من بين قنوات القصب القائم، لتتحول إلى مخلوقات جائعة باحثة، مصممة على إيجاد طعام لها، تحت حماية الظلام القادم.. في هذه اللحظات فقط، وأمام رعب شديد تملكها، سمعت ما بدا لها أنه شخير.. وتذكرت ما قالته لها كورين عن الخنازير البرّية، فارتدت على عقبيها وبدأت

تركض، لتستهلك القليل مما تبقى لديها من أنفاس، في سباق أخير يائس للخلاص مما تصورت أنه يلاحقها.

لا حاجة للقول، أن لا شيء كان يلاحقها. لكن كان من الجيد أن الصوت الذي سمعته دفعها للجري في اتجاه آخر، فما إن شقت طريقها بصعوبة بين كتل متشابكة من الأشواك والأعشاب المرتفعة، حتى وجدها «نواطير» مزرعة آل دوكويبري.

أكد الرجال لها أنهم لم يتوقعوا أن يجدوها، الدهشة والسرور غمرتا الرجال ما إن برزت غوين أمامهم. وحين قادوها إلى المنزل مبتهجين، قالت لها اليغرا، إن الجميع كان قلقاً عليها، خاصة وأن ميشال لم يكن موجوداً ليوجههم، خاصة أنهم لم يجدوها فوراً حيث أقسمت كورين أنها ستكون..

وأكملت تقول:

ـ خطر ضياعك في الدلتا، لم يكن متأتياً من إمكانية مهاجمة حيوانات متوحشة لك، بقدر إمكانية سقوطك في العديد من البرك والمستنقعات.

أحست بتورم وجهها حيث خدشت الأشواك وجهها الأبيض، حين لامست الخدوش الحمراء بأصابع مستكشفة، تألمت، وسرّها مجدداً أن ميشال لم يكن هناك ليراها.. إنه في باريس، شكراً لله.. لكن، على العكس، سرورها هذا لم يأتها بالراحة الحقيقية.. فهو سيعود!

حين وجدت صوتها بما يكفي لتسأل الرجال ما الذي حدث لكورين بالضبط، بدوا لها مراوغين بشكل غريب..

اليغرا هي التي قالت لها أخيراً ما الذي حدث. كورين، وبعد وقت قصير من تركها لها، أحست بعطل في محرك سيارتها، وقررت التوجه إلى «سانت ماري».. حيث كانت واثقة أن الكاراج هناك سيتمكن من إصلاح العطل في وقت أسرع مما يمكن لهم في المزرعة.. لكن، مضت عدة ساعات قبل أن تصل إلى هناك، ومدة أخرى قبل أن يكتشف الميكانيكي رمالاً في خزان الوقود، ويعلن أنه لن يستطيع فعل شيء له تلك الليلة.. وأكملت اليغرا بإثارة:

ـ هكذا كان الوقت ظلاماً حين اتصلت كورين تطلب منا التفتيش عنك. وأظنها تلوم نفسها لأنها لم يكن بإمكانها إعلامنا في وقت مبكر بما حصل.

ولم تصل كورين في الواقع إلى المزرعة إلا بعد وصول غوين في الليلة السابقة، وكانت مليئة بالأسى والرثاء، الذي لم يبدُ لأذني غوين على الأقل، صادقاً. قصتها كانت مقبولة ظاهرياً.. فلو كان هناك رمال في الخزان، أما كان هذا قد تسبب لهما بنفس المتاعب في طريق الذهاب بعد الظهر؟ لم يبدُ لها ممكناً، ولا محتملاً، أنها تعمدت وضع تلك الرمال بنفسها كي تضطر غوين لقضاء الليل وحيدة في المستنقعات.. لكن، سرعان ما ارتجفت غوين وهي تفكر، تدرك فجأة، من دون أدنى شك، ان ما تشك فيه صحيح.

مع ذلك، ما الذي يدعو كورين بينيت لأن تفعل شيئاً كهذا؟ هل رغبت، وبكل قساوة قلب، أن تتخلص من الفتاة التي تكرهها، وتبعدها عن طريقها؟ ارتجفت غوين مجدداً، تتذكر خوفها، تتساءل بجنون إذا كان ما حدث صحيحاً.. فبكل تأكيد لا يمكن لشخص صحيح العقل أن يفكر بأمر كهذا!

كأنما لتثبت شكوكها، جاءت كورين إلى غرفتها في الصباح الباكر، تقترح عليها بخفة، لكن بحزم:

ـ ألا تظنين من الحكمة لك، أن تعودي فوراً إلى بلادك غوين؟ صحيح أن وجهك مخدوش، لكن لا شيء سيء جداً.. ولا شيء يمنعك من السفر... أستطيع بسهولة مرافقتك إلى باريس اليوم. وهذا بكل تأكيد سيؤمن لكِ الخلاص من غضب ميشال حين يعودَ.

بقلب بارد فجأة، وضعت غوين المرآة الصغيرة التي كانت تمسكها، ونظرت إلى كورين بحيرة.. إذن هي مصممة على الخلاص منها بالرغم من كل شيء.. واليوم!

دون شك، هذه المرأة كورين، امرأة قرار! رفرفت غوين عينيها بارتباك، وضبطت نفسها على الفور أمام الشرر المتطاير من عيني كورين:

ـ أعلم أنه لا صبر له أمام الحوادث سيدتي، وأعرف أنني أصبت بعدة حوادث منذ وصولي إلى هنا.. لكن، ما من واحدة منها، خاصة الأخيرة،

كان لي فيها شأن، أو غلط . .

ضاع صوتها أمام صياح كورين :

ـ لكن لو لم تصممي على الذهاب إلى محمية الصيد . .

اتسعت عينا غوين بالحيرة :

ـ لكنني لم أصرّ . . ! أنت من اقترحت هذه الرحلة وتعرفين هذا .

ـ لكن، ما من أحد غيرك يعرف . . ومن سيصدقك؟

ضحكت كورين بحقد سام، وأكملت :

ـ ميشال يعرف تماماً مدى كراهيتي لمثل هذه الأماكن، ولكل تلك الطيور الصارخة الملوّنة، بوجه خاص . ويعرف أكثر من غيره، أنه لا يمكن أن أقتنع بعمل شيء لا أتمتع به .

ـ لن يصدقك!

لمعت عينا كورين :

ـ على الأرجح سيصدق . . عندها ستصبحين كذابة في نظره، إضافة إلى كونك مصدر إزعاج . . يا عزيزتي!

أحست غوين بالصدمة . . لو أنها كانت تبحث عن إثبات لحالة كورين العقلية، أليس هذا الدليل أمامها الآن؟ بل كل الدلائل التي تحتاجها لتقنع نفسها . يجب أن لا يكون هناك شيء أكثر أهمية، كل ميولها الشخصية يجب أن تنصب على هذا . . كريستين، روي، عمها وزوجته، لن يسامحوها مطلقاً لو تخلت عن فيليب الآن .

لكن هناك فرصة، ولو ضئيلة، أن يصدق ميشال ما تقوله كورين، ويعتبر آخر حادثة لغوين، لا يمكن أن تغفر، ويغسل يديه منها . . دون إرادة منها أجفلت للألم المربك الذي أحسته لمثل هذه الإمكانية، ألم اجتاح أفكارها . . في مثل هذه الحال، لا يمكنها سوى محاولة إيجاد خطة واحدة بديلة لفيليب .

تحركت كورين، نافذة الصبر، عيناها على وجه غوين المتردد . فسألت :

ـ حسناً يا آنسة . . هل أنت صماء كما أنت عمياء؟

همست، وقد ازداد غثيانها عمقاً، أمام الإهانة التي في صوت كورين :

ـ أنا آسفة، أخشى أن لا أستطيع السفر اليوم . . وقد يكون ميشال غاضباً جداً، كما تقولين، لكنني لست جبانة، ويجب أن أبقى لأواجهه .

* * *

٩ ـ لا تقولي سيدي

تأخرت غوين بالنزول إلى الفطور ذلك الصباح، ودهشت لوجود اليغرا في الردهة، تستعد للخروج.

رفعت اليغرا نظرها إلى غوين حين سمعتها تنزل السلم، وشيء من الإحراج يلوّن خديها:

ـ أوه.. مرحباً يا عزيزتي، قالت لي كورين إنك استعدت عافيتك تماماً.. لذلك لن تمانعي في ذهابي معها إلى مرسيليا.. سنذهب لنحضر سيارتها من سانت ماري. إنها تنتظر في الخارج الآن، وطلبت مني أن أسرع.

أحست بشفتيها تتصلبان:

ـ أجل.. حسناً.. هيا اذهبي.

بجهد تمكنت من التكلم دون اكتراث، وكأنما فرار كورين لا يهمها.. بطريقة ما، بدا لها كل شيء يحتاج إلى الجهد هذا الصباح، بالرغم من واقع أنها خرجت سالمة من المحنة التي مرت بها. على أي حال، شعرت بارتياح لعلمها أن كورين راحلة، مع أنها تشك أن يكون رحيلها لفترة طويلة.. بطريقة أخرى، رحيلها لم يكن منطقياً.. ألم تهدد بأن تخبر ميشال بقصة كاذبة؟ أيمكن أن تكون قد فكرت جيداً وغيرت رأيها؟

سرعان ما أعطتها اليغرا الخبر اليقين وهي تلتقط حقيبتها:

ـ لقد اتصل ميشال، وردت عليه كورين، قبل أن أنزل. وشرحت له ما حدث في «المحمية».. لكنها لم تقل ماذا قال، لديه مؤتمر هذا الصباح،

ولن يعود قبل المساء، أو ربما غداً. لكن لا تقلقي يا عزيزتي، لا يمكن أن يكون غاضباً!

لكنه كان غاضباً، وبشدة. وصل إلى المنزل أواسط بعد الظهر، حين لم تكن غوين تتوقع وصوله.. فشهقت تقول، وباب غرفة نومها ينفتح بفظاظة، ويدخل عليها دون إعلان:

ـ قال لي اليغرا، إن لديك مؤتمر.

بدا وكأنه لم يجد صوته قبل عدة لحظات، وأخذ يلعن ويشتم، وعيناه تحدقان في وجهها الممزق، وجسدها الصغير المتوجع يستند إلى الفراش.

ـ تتحدثين عن المؤتمر يا آنستي، دون أن تتركيني في راحة بال تكفي لأن أركز. لحظة أدير ظهري، تبدين استعداداً للانتحار، وأضطر للعودة إلى المنزل لأتفقد الأضرار!

جلس إلى جانبها بقسوة، وامتدت يده ترجع خصل شعرها إلى الوراء.. وكرر:

ـ يا إلهي! لو أنك تعمدت إفساد بشرتكِ الجميلة لما قمت بعمل أفضل من هذا!

قربه منها، جعل صوتها ضعيفاً، وهي متسمّرة، تتملكها حاجة ملحة لأن تسترضيه قبل أن يضيف شيئاً.

ـ بالكاد كانت هذه غلطتي.

بيرود استمر يتفحصها.

ـ ألم أعدك أن آخذك إلى المحمية بنفسي؟ كعضو في المحمية، لديَّ الإذن بالوصول إلى كل أجزائها.. لكن لا.. يجب عليك التأكيد على استقلاليتك المجنونة بالذهاب لوحدكِ، بالتوسل إلى كورين أن تأخذك.. صبري.. أصبح على نهايته! وأرفض أن أستمر طوال حياتي أردد كالببغاء «كان يمكن أن تقتلي»! من الآن وصاعداً، يا عزيزتي لن تتحركي إلى أي مكان قبل حصولك على إذن صريح!

ـ لكن الأمر لم يكن هكذا...

فراشة المحبة
www.liilas.com

ـ هل ستخبرينني كيف حصل هذا؟ عندها ستشعرين بارتياح أفضل، مع أن هذا أكثر مما أتمناه.

ردت متهورة:

ـ الذهاب إلى المحمية لم تكن فكرتي. لا بد وأنك تذكر أنك قبل رحيلك قلت إنني بحاجة إلى هواء نقي، وقد اقترحت كورين عليّ الذهاب.

تحولت عيناه إلى لون قاتم بارد، وعرفت فوراً أنها أخطأت.. لم يكن على وجهه أي أثر للثقة التي أملت بها، وحده الشك، وتوق يكاد يكون ملموساً ليمسك بها ويهزها:

ـ غوين! أتمنى لو تتخلين عن عادتك الغبية بالكذب عليّ.. كورين لن تحلم أبداً بالاقتراب من المحمية.. فهي مرتبطة بذكريات عن زوجها.. وتكرهها كثيراً.

امتقع وجه غوين، صدمة عدم تصديقه كانت أقسى من أي ألم جسدي تعانيه:

ـ إذن سيدي.. لا شيء بعد يقال.. ويجب عليك أن تهنىء نفسك على اكتشافك حقيقة شخصيتي في وقت قصير.

كانت عيناه كقطعتي ماس لامع في وجهه الصارم:

ـ قبل أن أتزوجك، تعنين؟

ـ بالضبط.

بتحدي المنتصر، تخلت عن كل قراراتها السابقة.. أبداً لن تستطيع الزواج من رجل متعجرف متكبر كهذا! أكمل بصوت رقيق:

ـ لكن، يجب أن لا تقلقي حول هذا يا حبيبتي.. كنت أنوي تخليصك من مثل هذا الخداع، وبيد من حديد لو اضطررت. فأنت صغيرة جداً، وبإمكانكِ أن تتعلمي.. يا إلهي.. لن تعرفي نفسك حين أنتهي منكِ!

رمت في وجهه رداً غاضباً:

ـ أنا أحب نفسي كما أنا.. سيدي!

سخر منها، عيناه تزدريان احتجاجها:

ـ يجب أن أتفحص هذه الخدوش.. توقفي عن تمثيل دور الطفلة الحانقة، وابقي لحظة هادئة.. قالت جانيت إنك رفضت السماح لها باستحضار الطبيب.

ـ حسناً، لم يكن هذا ضرورياً..

استقرت نظرته على الخدوش التي لا زالت حية على وجهها وعنقها.. وقال:

ـ لكنني آنستي، سأطلب حضوره في الحال، لو رأيت أن الأمر ضروري.

ارتبكت غوين فجأة، تحاول أن لا تجفل ألماً لتفحصه وجهها، وشدت على يديها وهو يتفحص عن كثب.. مع ذلك كانت أصابعه لطيفة رقيقة، حركاته رشيقة، ولم تجد سبباً حقيقياً للشكوى.. لكن، ما إن شاهد الجروح العميقة على كتفيها، حتى تصلبت أصابعه، وكأنه يرغب في ضربها..

ـ قد يكون هناك التهاب ما عزيزتي، والطبيب وحده قادر على معالجة هذا!

مرت ساعات طويلة بعد هذا، لكنها كانت ما تزال الثامنة حين استحمت وارتدت ملابسها لتنضم إلى العشاء مع ميشال في غرفة الطعام. كان الطبيب قد وصل وأعطاها حقنة مضادة للالتهاب، وأعلن أنه لن يستطيع فعل شيء أكثر من العلاج الأولي الذي قام به ميشال.. وقال إنها ستشفى بسرعة، ومع عناية بسيطة.. وإنها كانت محظوظة.

لو أنها أحست بمعنى آخر خفي من كلامه يقصد فيه أكثر من صحتها، إلا أن حديثه المستمر لم يعطها دليلاً.. ولم تفهم تماماً ما يقصد إلا وهي تتناول القهوة مع ميشال في مكتبته فيما بعد ذلك المساء.. حين قال لها، دون تردد، إنهما سيتزوجان بعد أيام قليلة.

قال ببرود، وكأنه لا يعي نظرة غوين المذهولة:

ـ كنت أقوم بالترتيبات في باريس.. ستتزوج هناك ونعود إلى هنا

فوراً . . سترافقنا اليغرا إلى باريس حيث ستسافر مع جوسلين في اليوم نفسه في رحلة إلى الولايات المتحدة تستغرق ستة أشهر . . بعدها، عزيزتي، سنسافر في إجازة خاصة بنا . . . شهر عسل مؤخر، إذا أحببت التسمية .

اتسعت عينا غوين، وأحست بالدوار، فأمسكت الفنجان جيداً كي لا يقع . . كان لبقاً جداً وقت العشاء مع أنها نزلت لا تعرف ما تتوقع منه . . ذكرى تكذيبه الكامل لها وعدم تصديقه لاستقامتها كانا يثيران مخيلتها إلى درجة الوصول إلى حافة الكارثة . . وهمست بصوت أجش :

ـ أنت تتلاعب بكل شيء بطريقة من يملك اليد العليا .

بثبات انتزع الفنجان من بين أصابعها المتصلبة :

ـ لولا هذا . . لما توصلنا إلى شيء . . كلانا يعرف ما يجب عمله لأجل فيليب، كما أن وضعاً مستحيلاً أخذ يتطور بسرعة، وهذا ما آمل أن أتعامل معه بسرعة بعد الزواج . هناك أوقات يجب القيام بالمبادرة غوين .

كان يتحدث بالألغاز، كعادته، وتفكيرها كان متلبداً لدرجة لم تستطع معها أن تفكر بما يقول . . بالرغم من كل قراراتها السابقة، عرفت ما يجب أن تفعل . . لكن ماذا عنه هو؟ سألت متوترة :

ـ هل أنت مستعد، للتضحية بكل الأمل في زواجك من شخص تحبه؟

رد، بنظرات شيطانية :

ـ ألا تتصورين شيئاً من الرومانسية بيننا؟

ـ لا أظن هذا . . فلن تجدني مثيرة لاهتمامك سيدي . .

التوى فمه :

ـ قد تفاجئينني !

الحاجة لأن تكون صادقة تماماً، دفعتها إلى ما أبعد من تحفظها المعتاد :

ـ لا أظن أن لي طبيعة عاطفية مشبوبة . .

ـ وهل لديك دليل على هذا؟

بتعاسة، تمنت لو أنها لم تقل شيئاً، لكن، بما أنها بدأت فماذا يمكنها أن تفعل غير أن تستمر؟

ـ لم يكن لي علاقة جدية من قبل يا سيدي . .

ـ وماذا لو قلت لكِ إنني مستعد لأن أخاطر؟

ـ لا أريدك أن تعتبر أنني خدعتك .

هذه المرة قال بصوت ناعم :

ـ لكنني لا أتوقع أي خداع .

على الفور توترت، وأحست بشيء يتحرك متشنجاً عند قمة معدتها . . أحست بأشياء كثيرة حوله، لكن هذا أمر آخر : القدرة على إيجاد الكلمات المناسبة للتعبير عن المشاعر .

ـ ما تقوله سيدي، يدل على أنك تتصور زواجاً طبيعياً . أو ربما تتوقع أن تحصل على ما يلهيك في مكان آخر .

ثقبت عيناه وجهها بنظرة ساخرة، وبدا أنه لم يتأثر بمحاولاتها المتألمة لتوضيح كل شيء بينهما . . ضحكته الخفيفة لسعتها بكسل وهو يقول :

ـ لماذا اتجشم عناء الاحتفاظ بامرأة أخرى، وهو الأمر المكلف جداً، بينما سأحصل على زوجة شابة جميلة يمكن فقط أن تكون بحاجة إلى القليل من التعليم .

مزاحه المزعج هذا، كان القشة التي قصمت ظهر البعير . . بوجه أحمر قاتم من الخزي والخجل صاحت :

ـ يجب أن تعطني الوقت !

ضاقت عيناه بفهم سريع، لكنه قال :

ـ أي وقت تشائين، ما عدا أن تطلبي ضمانة خطية . . يا عزيزتي . .

ـ لكن . . هل أنت رجل يحافظ على كلمته؟

ـ عادة . . لكن لا تجربي صبري كثيراً، يا صغيرتي . .

فجأة، شدها بقوة لتقف يقول آمراً بخفة :

ـ تعالي يا عزيزتي . . لقد أصابتك مآسٍ كثيرة في الأيام القليلة الماضية، دون أن أضيف أنا إليها . سأوصلك إلى غرفتك . . وإلا، أخشى أن تنهاري وأنت صاعدة . . تبدين مرهقة .

بطريقة ما، وجدت من المستحيل أن تجادله، أو حتى أن تجد همسة احتجاج.. وبيد داعمة تحت ذراعها أوصلها إلى باب غرفتها.. وقال بسخرية ألغت تأثير عنايته المفرطة التي أبداها:

ـ الآن.. قولي عمت مساء كفتاة طيبة.. هناك دائماً الغد.

دون أن يعطيها مجالاً للاحتجاج، أحنى رأسه يقبل خدها، كانت قبلة قصيرة، لكن كافية لإرسال شرارات نارية عبر جسدها، وتشويش مشاعرها.. وسمعت صوته يقول ببرود:

ـ عمت مساء عزيزتي!

ولم يكن فيه سوى البرود، فانتزعت نفسها منه لتدخل إلى غرفتها.

تزوجا، كما وعد، بعد بضعة أيام.. كانت المراسم مختصرة، في الكنيسة الصغيرة نفسها التي قال لها إن أبويه تزوجا فيها منذ ما يقارب الأربعين عاماً.. كل شيء كان هادئاً، لم يكن هناك سوى جوسلين واليغرا، وصديق قديم لميشال، رجل في مثل عمره، بدا مذهولاً بغوين.

في اليوم الذي سبق الزواج، سافرت إلى باريس مع ميشال واليغرا، وباتت الفتاتان ليلتهما عند جوسلين.. بوجود ميشال، كانت اليغرا قد ألمحت بحدة لغوين، أن لا ضرورة مطلقاً لإيصال مشروعهما إلى هذه الدرجة.. واحتجت لميشال بأن كورين سيتحطم قلبها.. لكن قبل أن تتمادى أكثر، جذبها ميشال إلى مكتبته ليعطيها محاضرة..

مرة واحدة، عادت تذكر الموضوع، فقد سمعتها غوين تقول سراً لميشال والجميع يتجه نحو حفل الاستقبال بعد الزفاف:

ـ لم أفكر أبداً أنني حين أرسلت بطلب غوين لتأتي إلى هنا، أن الأمر سيصل إلى هذا!

لكن، لم يكن هناك وقت ليرد ميشال عليها.. وخلال الساعات المليئة بالمرح والتهاني، لم تتح له فرصة سؤال اليغرا.. وكان لتغيير مزاج اليغرا الأثر الكافي لتعرف غوين أن الفتاة بحاجة إلى تأثير مقوّم دائم لحياتها، ومع أنها تحبها، فهي كانت ممتنة لغيابها ستة أشهر في أميركا.

أحست بتردد غريب حين تركت باريس مع ميشال وعادا إلى المنزل بعد الظهر.. كانت تود لو تبقى، لكن رغبة ميشال كانت العودة.

حين سمع تنهيدتها المنخفضة، تحركت شفتاه بابتسامة، وقال، وكأنه يقرأ أفكارها بوضوح:

ـ باريس حقاً مدينة العاشقين، ويجب التمتع فيها حتى النهاية.. لكن.. أعدكِ بزيارتها مرة أخرى.

عضت غوين شفتها وهي تراقب مظهرها، جسد نحيل جذاب محتشم، في ثوبها الحريري الناعم.. فستان كلفها أكثر مما تجرؤ أن تحلم، ومع أنها ابتاعته على عجل في الصباح السابق، مع عدة أثواب أخرى، إلا أنه يناسبها تماماً.. حاولت، لكن فشلت، أن تبقي أفكارها بعيدة عن دار الأزياء العصري الذي أُخذت إليه، والذي همست اليغرا لها عنه بأنه القمة في الأزياء، وأكثر الدور كلفة في المدينة!.

كان الوقت متأخراً حين وصلا المزرعة، في اليوم التالي مباشرة لأكليلهما، كل شيء كان هادئاً بما في ذلك جناح الطفل.. كانت جانيت قد حضرت لهما بكل لباقة وجبة باردة في غرفة الطعام، وبعد أن تمنّت لهما السعادة، انسحبت على الفور، لكن ليس قبل أن ترمق وجه غوين المحمر بنظرة تقدير وإعجاب.

قال ميشال يمازحها وهو يخلع عنها معطفها:

ـ إنها فقط تعتقد أنكِ مرتبكة، كما هو مفترض، لكن هذا لا يقاس بشيء مما تتوقعينه للغد.. فلا يتزوج «المعلّم» كل يوم.. والنواطير، سيقيمون احتفالاً، وأنا مضطر للمشاركة فيه يا عزيزتي، فلا تتابعي النظر إليّ هكذا.

بسرعة أشاحت عينيها الواسعتين عن وجهه، تعتذر بسرعة لتذهب وتغسل يديها.. منذ بضعة أيام كان يبدو كل شيء سهلاً بالمقارنة مع ما ينتظرها، فهي تدرك أن الصعوبات بدأت لتوّها، ميشال ألمح إلى أن هناك احتفالات.. فهل نسي أنهما تزوجا فقط لأجل الطفل؟ وتمنت لو تذكره بهذه النقطة، لكنها لم تجرؤ. شيء ما غير معروف لها في الرجل نفسه، كان

يمتعها . .

بسرعة ركضت إلى فوق . . كانت الرحلة متعبة والجو حار . وأحست بشوق لأن تزيح عنها عناء اليوم الطويل، أن تجد حذاءً قديماً مريحاً لقدميها المتألمتين . . لدهشتها الكاملة، حين فتحت باب غرفتها وجدتها فارغة، صحيح أن الأثاث لا زال هناك، لكن الفراش كان عارياً والخزانة مفتوحة، تخلو من الثياب .

وهي تحدّق بارتباك، قلبها يضرب بشدة، سمعت وقع أقدام ميشال يأتي خلفها . . وقال ببرود، ويداه على كتفيها ينظر معها إلى الغرفة :

ـ أنت الآن معي يا عزيزتي !

مع أنها شعرت بموجة من الإلحاح تبثّها أصابعه إلى بشرتها الناعمة، فقد تجاهلته، تبقي نفسها متصلبة، مصممة أن تقاوم الاندفاع المجنون لأن تستدير وترمي بنفسها بين ذراعيه .

حاولت التكلم بصوت هادىء، لكن كلماتها لم تكن هكذا :

ـ كنت أفضل البقاء هنا . . على الأقل لفترة أطول بقليل .

اشتدت يداه عليها :

ـ ربما يكون هذا أفضل غوين، لكنني لا أرغب في أن نكون موضوع توقعات مسلية، وهذا ما سيحصل لو بقيت هنا .

بالرغم من تصميمها أن تبقى متعقلة، ارتفع صوتها، وهي تلتفت بغضب تواجهه .

ـ لكنك وعدتني !

ضاقت عيناه أمام غضبها الواضح . . وقال بهدوء :

ـ لم أعد بشيء حول أي شيء . . على الأقل حول هذا .

ردت بمرارة :

ـ هذا لأننا لم يتح لنا الوقت لنصل إليه . . لكنني ظننت المسألة متفاهم عليها ! على أي حال، أوافقت أم لا، أرفض الانتقال من هنا ! وبما أنني أشعر بالتعب الشديد، لا أظن أنني سأنزل إلى الطابق الأرضي مرة أخرى، لذا

سأقول لك منذ الآن، عمت مساء !

كان من الخطأ التصرف الهستيري، عرفت هذا، لكنها لم تكن مستعدة قطعاً لردة فعله . كقبضتين من فولاذ، التفت ذراعاه حولها، تحملانها، لتقع الحقيبة من يدها وهو يحملها ويستدير، ثم يصفق الباب وراءه بوحشية، ويسير بها دون تردد عبر الممر العريض .

وعت غوين أنها كانت تصرخ، تشهق، تكاد تبكي على صدره . . وكلما أصدرت أصواتاً أكثر، كلما زاد نشاطه، وشدها إليه أكثر، إلى درجة الألم . . حين بدت وكأنها فقدت آخر أنفاسها، أحست أنه تركها، رماها إلى الخلف، فوق الفراش . .

قال بصوت وكأنه اللهب الحي . . الذي بدا أنه يخدشها :

ـ عمت مساء . . سيدتي ! أنا لا أرغب في عروس غير راغبة، أكثر مما ترغبين أنتِ أن تكوني . . أؤكد لكِ أنكِ لن تنزعجي هنا !

شهقت غوين، لكن قبل أن تتمكن من الكلام، كان قد استدار وخرج، وارتجّ الباب بقوة خلفه .

في الصباح التالي، لم تكن واثقة مما إذا كان كل هذا الذي مرت به، مجرد كابوس . . لكن، خلال أول لحظات صحوها، حين رأت أنها لوحدها تماماً، أدركت ببطء أن الذي حدث حدث بالفعل، وأن مخيلتها لا تتلاعب عليها . ميشال غضب جداً، ولا بد أنه الآن ثائر، وهذا أمر لم تكن في الواقع تريد أن يحصل، وحتى الآن لا تفهم بوضوح كيف حصل . حين وصلا إلى المنزل، لم يكن ميشال يبدو لها غير مستعد لأن يكون متعقلاً . وها هي الآن قد أنفرته تماماً . . وعلى الأرجح لن يرغب في أن يكون ودياً ولو من بعيد . أيمكن أن تلومه؟

بارتباك، ودون إحراج من أفكارها المتسارعة، خرجت غوين من السرير بعد حمام سريع، ونزلت إلى الطابق الأرضي . فلسبب ما، جانيت لم تأتها بفنجان قهوتها، وتاقت فجأة للقهوة . حقيبة ملابسها كانت داخل الغرفة، مع أنها لا تعلم كيف وصلت إلى هناك . . لا بد أن شخصاً دخل

الغرفة بصمت حين كانت تغط في نوم متعب، ربما قبل الفجر بقليل. من بين مجموعة من الثياب الجديدة الفاخرة، اختارت فستاناً قطنياً ناعماً مستدير الياقة يخفي آثار مغامرتها في المحمية.

بداية، لم تفتش عن ميشال.. بل سعت إلى جانيت في المطبخ، التي قالت برسمية لاحظتها غوين فوراً:

ـ الفطور في غرفة الطعام سيدتي.

شعرت فجأة بنظرات جانيت الفضولية إليها، فتمتمت:

ـ أنا.. افتقدت لفنجان القهوة الصباحي، ولم أرغب في الفطور على الفور.

ـ لكن «المعلم» قال إنكما لا تريدان شيئاً هذا الصباح..

ما يحمله كلامها من معاني جعل غوين تحمرّ خجلاً.

كيف يجرؤ على إعطاء مثل هذه الأوامر! كيف يجرؤ.. وكررت هذا في نفسها عدة مرات غاضبة، بينما كانت عينا جانيت تجوبان ببطء عليها.. بسرعة أكدت للمرأة أنها غيرت رأيها حول القهوة، وركضت خارجة إلى الحديقة.

إذا كان ميشال قد انهمها بالتخطيط لإعطاء الخدم مادة للتفكير، فمن الواضح أنه لم يفكر مرتين قبل أن يرتكب الجرم نفسه.. خلال ذلك اليوم، وفي اليوم التالي، لم تشاهده سوى وقت الطعام. وكان الحديث من الجانبين، لا يمكن أن يوصف سوى بالبرود، والأدب المدروس.. أحياناً كان يهتم بما يكفي، حسب ظنها، لتهدئة أي تخمينات.. أقام الرعاة احتفالهم، الذي عرفت غوين أن لا هي ولا ميشال استمتعا به. فهي لم تتحرك من مكانها، وبقي ميشال بارداً جامداً كالصخر.

تلك البرودة المسيطرة، هي التي أخافت غوين أكثر من أي شيء آخر.. قدرته على البقاء مبتعداً غير مكترث، بينما هي، تدفع نفسها إلى موقف مقيت مربك من التعاسة، إلى جحيم خاص بها أخذ يتحول إلى ما فوق القدرة على التحمل. خسرت القليل من وزنها، عذابها الداخلي انعكس في فقدان

الشهية، مع اقتناع متزايد بأن ميشال أخذ يعني لها أكثر بكثير مما ظنته ممكناً.

بعد ظهر اليوم الثالث لعودتهما من باريس. كانت قد أمضت معظم يومها مع فيليب، فقد أحبت الصبي، وواثقة أنها حصلت على حبه في المقابل.. لم تندهش لموافقة جديه على زواجها من ميشال، فكما تعتقد، سيتصوران أن هذا سيؤمن مستقبل فيليب.. لكنهما دون شك، قد طارا فرحاً حين طلب منهما ميشال زيارته متى أرادا. وبدا أن كل شيء سينتهي نهاية سعيدة في هذا الاتجاه، إن لم يكن في اتجاه آخر.

ميشال كان غائباً منذ وقت الغداء، فلديه عمل يقوم به، كما شرح لها باختصار، له علاقة بالاحتفالات التي ستجرى في اليوم التالي في «سانت ماري دولامير».. ولم يطلب منها مرافقته.. فجأة، وبعد موعد الشاي، لم تعد تتحمل البقاء في المنزل لوحدها.. ستخرج لركوب الخيل، فقد بدا لها أنه مرّ دهر لم تخرج فيه لتمتطي الجواد الصغير الذي اعتادت عليه.. أحست بشوق لتحسّ الريح البرّية على وجهها، إلى أي شيء يمكن له أن يزيل كل الأيام الأخيرة المتزايد.

مجرد التفكير بهذا، جعلها تركض إلى غرفتها، وترتدي ما يناسب الركوب.. لكنها تذكرت حين وصلت الغرفة، أن ملابسها القديمة اختفت.. وحين ذكرت هذا لميشال قال انه أعطى تعليمات لجانيت أن تحرقها، وهذا ما أزعج غوين كثيراً، حتى أنها لم تتمكن من إعطاء أي تعليق.. لكن بكل تأكيد يعرف أنها بحاجة إلى ملابس للركوب؟ بعبوس وقفت أمام الخزانة تتساءل ما تفعل. هناك أمل واحد بأن لا تكون جانيت قد تخلصت من الملابس القديمة، خاصة بنطلون الجينز.. في المطبخ، نظرت جانيت إليها بارتياب، وقالت:

ـ لا تزال الملابس في غرفة الغسيل القديمة سيدتي.. أخشى أنني نسيت كل شيء عنها.

أحست بعيني جانيت تراقبانها وهي تسترد بانتصار، بنطلونها.. ثم صاحت المرأة:

ـ ستبدين رثة الثياب يا عزيزتي بعد الملابس الأنيقة التي كنت ترتدينها!

تجاهلتها غوين، وابتسمت لها كطفلة صغيرة، تضم البنطلون إلى صدرها بسعادة، بعد شكر جانيت، عادت إلى غرفتها.. كم أصبح الأمر سهلاً الآن! خلعت فستانها الفاخر، الذي يجعلها تبدو أنيقة بشكل مناسب.. دون اكتراث تركت الفستان يسقط إلى الأرض، قبل أن ترتدي القميص القصير الأكمام، الباهت اللون غير المرتب قطعاً، ثم البنطلون المماثل. كانا مريحان جداً.. ومألوفان، تحس فيهما بالحرية، غير مقيدة، بخيوط الزواج الذي لم يكن زواجاً حقيقياً أبداً.

استدارت على نفسها تكاد ترقص، لكنها جمدت برعب حين شاهدته يقف أمامها عند الباب.. الرجل نفسه الذي كانت تأمل أن تتجنبه، يحدق بها مباشرة.. اتسعت عيناها في وقت سرت رجفة في أوصالها.. منذ متى وهو يقف هنا؟

لم تسمعه يصل.. لم تتوقع أن يكون هنا.. ألم يقل لها إنه سيعود متأخراً، بعد العشاء؟ لا بد أنه كان في الحمام الذي تعلم أنه يستخدمه عند نهاية الممر، فهو لم يكن يرتدي سوى منشفة مربوطة باسترخاء حوله. وشعره لا زال مبللاً.. لا بد أنه شاهدها وهو في طريقه إلى غرفته، وتصلبت أعصابها بألم ورعب.

حاولت يائسة التغلب على مثل هذه المشاعر المذعورة، فتحركت شفتاها بما يشبه الابتسامة.. أيبدو غاضباً؟ قلبها، الذي كان منذ لحظات يبحر بفرح فوق غيوم بيضاء، وقع بقسوة إلى حذاؤها. إنها تعرف أنها تخافه، لكنها لا تعرف مقدار هذا الخوف.

كان واضحاً أنه غاضب لشيء ما.. فقد لمعت عيناه الخضراوان كحد الخنجر، وسأل بصوت حاد كالسوط:

ـ إلى أين أنت ذاهبة، بهذه الثياب؟

إذن هذا هو سبب غضبه! بيأس، دون وعي بما تفعل، نظرت إلى الجينز، وابتلعت ريقها، تكرر:

ـ أنا.. أنا.. كنت ذاهبة لركوب الخيل.

ـ أرفض السماح لك!

ـ أوه.. لكن..

ـ لن تذهبي.. إلى أي مكان وأنت في هذه الثياب!

أخيراً وجدت صوتها:

ـ لكن.. كنت سأخرج لأركب الخيل فقط.. سيدي.

صاح بعنف:

ـ سيدي؟ بعد ثلاثة أيام من الزواج، لا زلت تناديني سيدي؟

أحست برجفة خوف. كانت تعرف أنها أخطأت، فتمتمت بعبوس:

ـ إنها هفوة لا داعي لإثارة الضجيج لأجلها، لكن إذا أردت الاعتذار، فأنا آسفة!

تجاهل تعبير الندم.. وقال:

ـ سأعطيك ثانيتين لتخلعي هذه الملابس التي لا أستطيع التحدث عنها، وإلا سأنزعها عنك بنفسي.. ولن يكون هذا صعباً!

* * *

١٠ ـ امرأة الظل

موجة من الارتباك سيطرت على غوين، وانتابتها رغبة جامحة في رد تحديه لها. . حركة يديها النحيلتين وأصابعها الناعمة ازدادت بوتيرة عصبية وكأنها تساعدها في البحث عن الكلمات المناسبة لمواجهته، وفجأة توقفت حركة رموش عينيها لتتسمر نظراتها على وجهه حيث بدت فيه قوة ثابتة وتصميم لا يتزعزع على تنفيذ مشيئته بلا تردد. . ولكنها أصرّت على مواجهته ومنعه من الإمعان في إرهابها، فقالت بحزم:

ـ لن تجرؤ على هذا!

كانت مندفعة لدرجة لم تعي فيها الخطر. . وتراجعت عنه، لكنه اقترب منها. . بعزلتهما الكاملة هنا، لم يكن هناك سوى الصمت وهما ينظران إلى بعضهما، التوتر يهيمن على أفكارها، وزخم المواجهة بينهما بات يتصاعد بشكل واضح.

التصميم على رد تحديه لها ازداد. . وفي الوقت نفسه، كان يتصاعد في داخلها شعور بالاستسلام لإرادته، وحين أربكها تناقض مشاعرها، نظرت إلى الخلف بسرعة، تقدّر المسافة التي تفصلها عن باب الحمام. . أيمكن أن تنجح؟ وتمكنت من الركض خطوتين قبل أن يمسك بها. في وقت كانت أصوات تأوّه العاصفة الشمالية تتصاعد في الخارج، والغيوم تتجمع استعداداً للعاصفة، وشمس المساء تظلم. . شدها إليه، يمسك بقميصها يشقه، ويفعل الشيء نفسه ببنطلون الجينز. . الغضب يعطي يديه القوة، مع خفة

عجيبة، وأخذ ينزع عنها الثياب الممزقة ويرميها بعيداً.

كادت تبكي حنقاً، وحاولت الالتفاف لتضربه:

ـ أيها الوحش! أكرهك! أكرهك!

أمسك بيديها الشاحبتين الرقيقتين بيد واحدة، ليشل حركتهما بينما كانت عيناه تتفرسان بها:

ـ هكذا، يا ماكرتي الصغيرة، لن يهمني كيف أعاملك، فلن تستطيعي كراهيتي أكثر. . لكن، لن أتحمل أكثر من هذا!

خرجت أنفاسها في شهقات قصيرة مزعجة:

ـ أنت تؤلمني!

دفعته والدموع تلمع مع الغضب في عينيها:

ـ أنت متوحش!

تحركت يده عليها، كان مخيفاً، دون رحمة، شخص بالكاد تعرفه. . شدّها بقسوة إليه، ووضع يده تحت ذقنها:

ـ وقحة! أنت بحاجة ماسة إلى درس. . سيدتي. حان الوقت لتتعلمي أنك لن تستطيعي تنفيذ كل شيء حسب رغبتك!

حاولت غوين، في محاولة غريزية واعية أخيرة، أن تقاوم لتتخلص من الأثر الحارق الذي أثارته لمساته. . لكن ميشال لم يلن. . وكبح احتجاجها اليائس إلى أن توقفت عن المقاومة، ضائعة في متاهة من الأحاسيس.

ارتفع فمه قليلاً إلى أذنها، يقول بصوت قاتم:

ـ لن أتركك أبداً.

شعرت أنها تفقد كل سيطرة. . أحاسيسها أصبحت مجرد زمجرة في أذنيها، أصابعها كانت تلامس بشدة خده الأملس القاسي لتلتف حول عنقه وتتعلق به، وتحس بأن جسدها أصبح لا عظام له.

سمعت صوته يقول بنفاد صبر:

ـ اهدئي. .

ـ لكن. . ميشال. . أرجوك. .

قراءة المحبة
www.liilas.com

ـ نحن متزوجان . . ألسنا كذلك؟

وكان هذا آخر ما سمعته . . .

في اليوم التالي اصطحبها ميشال إلى حظيرة الثيران . . مع أنها لم تكن راغبة، ولكنها لم تعد تملك القدرة لمقاومته . . طوال النهار كان ميشال ورجاله يفصلون الثيران عن القطعان لنقلها بالشاحنات إلى ميدان سباق الثيران، ثم إعادتها إلى القطيع ثانية . .

لم يبتعد ميشال عنها كثيراً . . بعيد بما يكفي لإبقائها حرة وفي الوقت نفسه تحت مراقبته، فهو يدرك مدى استعدادها للوقوع في المتاعب . . وقُبيل الغروب دفعه شحوب وجهها، إلى اقتراح تناول بعض المرطبات، ثم العودة إلى المنزل، أو إلى فندق:

ـ فندق صديقتك القديمة السيدة ايمز يفي بالمطلوب، سيكون هادئاً وبعيداً عن البلدة.

ـ لا يهم . . أفضل أن لا نذهب إلى هناك، إذا كنت لا تمانع.

ـ أوه . . لكنني مصرّ عزيزتي، إذا كنت مصرّة على إظهار جو التضحية، فيجب أن أفعل شيئاً لإسعادكِ.

بإحساس من عدم جدوى الاحتجاج، جلست إلى جانبه هامدة وهو يقود السيارة باتجاه الفندق . . وحين وصلا شعرت بالارتياح لرؤيته هادئاً . . معظم الضيوف لم يعودوا بعد استعداداً للعشاء . . وطلب ميشال الشاي، وهو طلب لا شك أنه مزعج الآن لمن يعمل في المطبخ لانشغالهم في تحضير العشاء . . بثبات، وهما يجلسان معاً، أبقت عينيها بعيدتان عنه، لم تكن بحاجة لأن تنظر إليه لتعرف الجو المتعجرف الذي يحيط به، ولا مظهره الجميل كذلك. كيف حصل وأحبت رجلاً كهذا؟ أحبته بالفعل، وهذا ما بات يزيدها أسىً ونقمةً على نفسها . . في السابق كانت كراهيتها له ناجمة عن التأثيرات غير المحسوسة لشخصيته القاهرة، أمّا الآن، فهي باتت تلوم نفسها على تعلقها المجنون به. تعلقها هذا هو المسؤول عن تدمير قدرتها على الدفاع عن قناعاتها، خاصة وأنها تجد نفسها تنساق إلى حياة تعيسة دون

أن تقوى على المقاومة.

جلست غوين جامدة . . رأسها محني قليلاً، مما سمح لشعرها الأشقر الناعم أن يلتفَّ على خديها، خافياً بعض ملامح البؤس، وقال ميشال حين وصلت صينية الشاي:

ـ بإمكانك أن تصبه . . أنتِ لم تتناولي الكثير منذ الصباح يا عزيزتي وليلة أمس لم تتناولي العشاء.

أيجب أن يذكرها بليلة أمس؟ لديها شعور بأنه يفعل هذا متعمداً . . ردت بهدوء:

ـ لست جائعة!

نظرته الشاملة، كانت مليئة بالتوتر المكبوت، وكأن صمتها يستفزه . . قال بعدم اكتراث ظاهر:

ـ لا تقلقي . . فمن المؤكد أن تعود لك شهيتك.

رفعت رموشها المثقلة لتنظر إليه بتمرد غير آبهة بسخريته:

ـ لم تكن غلطتي . .

صمتت فجأة حين هبطت السيدة ايمز عليهما على حين غرة، فانحبست أنفاس غوين بغير ارتياح . . فهي لم تشاهد المرأة منذ عملت في الفندق، مع ذلك كانت تشعر بالذنب لتركها كما فعلت . .

لكن السيدة ايمز كانت على ما يبدو في أفضل مزاج . . وجود موظفتها السابقة التي تحولت بفعل ساحر إلى السيدة دوكويبري، لم يؤثر عليها مطلقاً . . وصاحت بمرح:

ـ آه . . سيدي . . سيدتي . . كم من الرائع أن أراكما!

بابتسام تمنت لهما السعادة، تعبّر عن كل آمالها بأن تراهما أكثر في المستقبل، وأكملت تبتسم لغوين:

ـ وآمل كذلك، أن تقنعي زوجك بفتح اسطبلاته من جديد، عزيزتي، فهذه الأيام ألجأ إلى اسطبلات أخرى لكنني أتشوق لمزرعة دوكويبري جداً.

نظرت غوين إلى ميشال بقلق، لترى أنه هز كتفيه فقط. فتذكرت

بغموض أنها سمعت شيئاً عن هذا من اليغرا، لكنها لا تذكر أي شيء على وجه التحديد، ولم يبدُ عليه الاهتمام.

وكأنما شعرت السيدة ايمز بعدم اكتراثه، فسارعت تقول:

ـ لم أقترب منكما اليوم لهذا السبب سيدي.. بل بسبب السيدة بينيت.

ارتفع حاجب ميشال قليلاً، وقفز قلب غوين بألم:

ـ في مثل هذا الوقت منذ أسبوعين جاءت إلى هنا وتناولت العشاء، وأخشى أن تكون قد تركت وراءها ولاعة سكائرها.. وها هي.. أترى، عليها أحرف اسمها الأولى.. حسناً، حين اتصلت في الصباح التالي بمنزلك، قيل لي إنها وشقيقتك قد ذهبتا إلى موروني، بعدها مباشرة عرفت أنكم جميعاً سافرتم إلى باريس للتحضير للزواج. لذلك قررت تركها هنا.. وفكرت أن السيدة قد تعود لتأخذها بنفسها..

أكملت السيدة ايمز الكلام لدقائق بعد أن أعطت الولاعة الذهبية لميشال، ثم تركتهما بوداع مبهج وتعبير قلبي آخر عن الأمل بفتح الاسطبلات مجدداً... أمعنت غوين النظر بالمعدن اللماع الذهبي للولاعة التي تدور في يد ميشال وهو ساهم الفكر.. لقد ذكرته هذه الولاعة بالمرأة التي كان سيتزوجها.. شخص أفضل منها كان يمكن أن يلبي احتياجاته.. وقبل أن تتمكن من منع نفسها قالت:

ـ أكنت تحب كورين كثيراً...؟

ـ أحبها!؟

نغمة العجب في إجابته قد تدلّ على أن العبارة أقل من أن تعبر عن حقيقة مشاعره، لكنه لم يقل المزيد، بل تابع العبوس، يتأمل الولاعة.

أخذت رشفة سريعة من الشاي، كادت تحرق فمها.. لكنه وقف فجأة، ناسياً الشاي:

ـ لو عذرتني يا عزيزتي.. سأعود بعد دقيقة..

وتركها دون انتظار الرد.

طوال طريق العودة إلى المزرعة، كان ميشال مشغول الفكر، لا يتحدث

كثيراً. قدّرت غوين، أنه لا يزال يفكر بكورين.. لكنها لم تكن تتوقع حين وصلا أن تسمعه يقول:

ـ أنا مضطر للخروج ثانية يا عزيزتي..

ـ الخروج.. ثانية؟

استدارت لتواجهه وهو يفتح لها باب المركبة، ويده بكل أدب تحت مرفقها ليساعدها على النزول:

ـ أتعني العودة إلى سانت ماري؟

عيناه كانتا ضبابيتان مبهمتان، وهو يرد على نظرتها المحتارة:

ـ لا.. إذا كان يجب أن تعرفي، فأنا ذاهب إلى موروني، وقد أتأخر.. فلا تنتظري عودتي.

موروني؟! أوه.. لا.. ليس هذا! أحرقت الدموع فجأة عينيها، وهي تلاحقه بنظرها.. فكّه كان مشدوداً، ونظر إليها وكأنه نادم، ليس على زواجه منها فقط، بل على المنحى الجديد الذي تحول إليه هذا الزواج. وإذا كان قد انتزع منها كل التجاوب في الليلة السابقة، فواضح أنه لم يكن راضياً عن ردة فعلها هذا اليوم.. ولا بد أن هذه طريقة لإظهار عدم رضاه.. طريقته للتوضيح بأنه ولو تحول لوقت قصير عن كورين، فهو تحوّل مؤقت، لحظة جنون، يجب أن لا تتكرر. هذا المساء، لا بد أنه واثق، ستستقبله كورين بذراعين مفتوحتين!

ألقت التعاسة بجو من الشحوب الشديد على وجهها الفتي. وركضت إلى الطابق الأعلى وكادت تنسى في عجلتها أن تطل على غرفة الطفل، لكن فيليب، في مثل هذه الساعة، يكون نائماً. نظرت إلى وجهه النائم دون هموم، قبل أن ترتد لتقول لجانيت إن ميشال لن يتناول العشاء.. وتظاهرت أنها لم تلحظ نظرة المرأة الحادة.. مجرد أن تخمن جانيت إلى أين ذهب، هو الإذلال الذي لا حدَّ له.

بعد الحمام، والروتين العادي الضروري استعداداً للنوم كانت لا تزال أكثر قلقاً من أن تصعد إلى السرير، وللحظات وقفت في المكان المفضل

لديها عند النافذة. . من وراء الحديقة، عبر السهل الواسع، كانت الريح تصل بنعومة مع كل وعود صيف مبكر. . لكن، وكما في ليالٍ أخرى، كل شيء آخر كان ساكناً، لا أصوات طيور، لا ريح شمالية تصفّر في قمم أشجار الصنوبر، فقط همهمة خافتة للحشرات وهي تضرب نفسها دون هدى على زجاج النافذة المضيء، يجذبها الضوء. هناك الكثير في هذا الجزء من العالم جذاب جداً، ويعجبها جداً، ويمكن أن تتعلم حبه، حتى وهي تحب الرجل الذي يملك هذا الجزء الكبير منه، لو أتيحت لها الفرصة. تنهدت غوين. . من قبل بدا لها كل شيء سهلاً، ولا بد أنها كانت حمقاء لتفكر هكذا. . كيف يمكنها البقاء هنا، وهي تحب ميشال هكذا، حتى من أجل فيليب؟ صعوبة إخفاء مشاعرها الحقيقية قد تكون مهمة صعبة. . وفكرت بمدى إحراج ميشال لو عرف بالضبط حقيقة مشاعرها نحوه.

كانت مستغرقة جداً في أفكارها حتى أنها لم تسمع دق جانيت اللطيف على الباب، إلى أن دقت من جديد، بصوت أعلى. ولظنها أن الطارق هو ميشال، ضمت أطراف ثوبها الحريري. . وتقدمت ببطء تفتح الباب. . لتجد جانيت بلهفتها المعتادة:

ـ أوه. . سيدتي. . تساءلت ما إذا كنتِ تمانعين في إلقاء نظرة على الطفل، إنه لا يتوقف عن البكاء، وأظنه مريضاً. ألا زال «المعلم» في الخارج؟

ـ طبعاً. .

في غرفة الطفل، وجدت كما توقعت، أن فيليب يعاني من ألم متواصل في معدته. بسرعة حملته، تهدئه قليلاً قبل أن تعطيه دواء خاصاً لمثل هذه الحالات، ليريحه من المغص. وما هي إلا دقائق حتى كان ينام بهدوء بين ذراعيها.

أرسلت جانيت لتنام قائلة:

ـ سأبقى معه وقتاً أطول.

وهي تعيد فيليب بلطف إلى سريره، استدار إلى جانبه مرتاحاً، وعلمت

أنه لن يستفيق قبل الصباح.

بحذر أطفأت نور الغرفة، وجلست إلى جانبه على كرسي، وهناك لا بد أنها غطت في النوم، لأنها استفاقت مجفلة لتجد ميشال إلى جانبها يراقبها بحنان، حاولت جمع أحاسيسها النائمة، وقالت متثائبة:

ـ لا بد أنني نسيت أين أنا.

ابتسم لها وقال:

ـ تعالي يا عزيزتي، يجب أن تقولي لجانيت أن تتدبر أمرها بنفسها حين يبكي الطفل، ولا حاجة لكِ للبقاء هنا طويلاً.

إذن، لقد عرف ما كانت تفعل، وقالت تشرح:

ـ كان لديه ألم بسيط، لا شيء جدي. لكن جانيت قلقت، وما كنت أنوي سوى البقاء لدقائق فقط. .

ـ واستغرقت في النوم؟ على أي حال، الطفل الآن على ما يرام، وأمامنا أشياء كثيرة نناقشها.

خارج الباب، بعدما وعت تماماً سحبت يدها منه:

ـ ميشال!

شعرت فجأة برقة فستان نومها. . كيف يمكن أن يتوقع تصرفاً عادياً منها، وهو عائد لتوه من موروني، من عند كورين؟ أكملت بمرارة:

ـ لا أظن أن لدينا أي شيء نتحدث عنه. . على الأقل لا شيء لا يمكنه الانتظار حتى الصباح.

ـ هس. . .

اشتدت قبضته على معصمها، أمام مقاومتها الملحة وهو يضمها تماماً بين ذراعيه ويعانقها، فأحست بسرعة أن قوته لم تعد تزعجها، ولم تع كيف وصلا إلى مكتبته، فهي لم تعد تقاومه، ولا تستطيع الاعتماد على أي إرادة لتقاوم، فتفكيرها السليم لم يعد يعمل، ولو حتى قليلاً، أمام جاذبيته. . من مكان ما حاولت الاستعانة بقدر صغير من الاستقلالية، لكنها وجدت نفسها مدفوعة بتسلط فوق صوفا مخملية واسعة، ويداه على كتفيها النحيلين تثبتانها

قبل أن ينحني قليلاً ويشعل المدفأة الكهربائية . . وقال آمراً :

ـ ابقي هنا .

راقبته وهو يصب القهوة من إبريق كهربائي ، تحب كل حركة من حركاته ، مع ذلك كانت تعتقد أن مثل هذه المشاعر من جانب واحد لا يمكن إلا أن تجلب لها التعاسة .

عاد إلى جانبها :

ـ خذي اشربي هذا . . أنت شاحبة جداً عزيزتي !

جلس قربها وهي تجلس كأنها التمثال الهش المعرض للكسر . . غير قادرة لسبب ما أن تبعد عينيها عنه .

ـ حبيبتي . .

كانت هذه أول مرة يدعوها هكذا ، واقشعرت بشرتها وكأنما أصيبت بتيار كهربائي ، وتلونت وجنتاها . . ولاحظ هذا على الفور ، فمد أصابعه تلامس مكان الاحمرار مداعباً تحت الزاوية المكشوفة من ذقنها :

ـ غوين . . أتعلمين أين كنت هذا المساء ؟

أخذت نفساً عميقاً مؤلماً :

ـ أجل . . ذهبت لزيارة كورين ، وأظنني أعرف السبب .

ـ تعرفين ؟

ـ أجل . . أنت تتمنى لو أنك تزوجتها بدلاً مني . . وربما ذهبت لتقول لها هذا . . فلا تفسير آخر .

صاح بصوت لاذع كالسوط :

ـ هذا يكفي !

اشتدت قبضة يده على وجهها ، ثم تراخت ليكمل :

ـ آسف يا عزيزتي . . لكن بالطبع لا بد أن تفكري بأمر كهذا . . لكن من الطبيعي كذلك أن لا يكون هناك شيء أبعد من هذا عن تفكيري .

ـ أتعني أنك لا تحبها ؟

ابتسم وهز رأسه :

ـ هناك فتاة وحيدة أحبها ، حبيبتي . . ألا يمكنك أن تخمني ؟ منذ لحظة رأيتك . .

ـ لا . . أوه . . ميشال !

صوتها خرج شهقة صغيرة غريبة وهو يضمها بشدة إليه ، وكأنه يتمتع ببهجة جسدها المتراخي بعجز .

ـ أحبك . . لكن قبل أن أقول لك كم ، يجب أن نتحدث عن هذه الليلة . كل الشكوك بيننا يجب أن تزول ، وإلا ستستمرين بالخوف . . أتذكرين يا عزيزتي حين أعطتني السيدة ايمز ولاعة كورين ، أنها قالت كذلك متى نسيتها كورين ؟ شيء ما برز في رأسي على الفور ، لكن ، كي أتأكد ، تحققت من الأمر مع السيدة ايمز وأنت تنهين شرب الشاي . . لقد وصلت كورين إلى الفندق حوالي الساعة الخامسة في اليوم الذي تركتكِ فيه في المحمية . . بينما المفروض ، كما قالت ، أن تكون في طريقها إلى هنا لإحضار سلة الطعام التي نسيتها .

أجفلت وجسدها النحيل يقشعر للذكرى :

ـ أتعني . . . ؟

ـ أعني . . أنها طوال الوقت كانت تكذب . وبينما كان من المفترض أنها كانت تصلح سيارتها ، كانت في الفندق تتناول العشاء !

ـ هل أنت متأكد ؟

اشتد ضغط شفتيه حتى أصبح فمه كخط أبيض رفيع :

ـ بعد التأكد من كلام السيدة ايمز ، اتصلت بالكاراج حيث تركت سيارتها . . وقال لي صاحبه ، إن الرمال التي كانت في خزان وقودها تماثل رمال الصحراء ، ولكثرتها ، لا يمكن أن تكون قد وصلت هناك صدفة ، وبكل تأكيد ما كانت لتسمح لها بالسفر أكثر من مسافة قصيرة . وبالطبع لم يكن يعرف الظروف ، ولم أقل له . . يا إلهي ! وأنا من صدقتها !

ارتد رأسها إلى الوراء تسنده إلى كتفه :

ـ أنا ما كذبت عليك يوماً ميشال .

ـ حبيبتي . . كنت متوحشاً ويجب أن أتوسل إليكِ لتغفري لي . . كورين هي التي قالت لي سلسلة من الأكاذيب لكن قلقي عليك في الواقع هو الذي جعلني أغضب . بعد ظهر اليوم، وبعد أن عرفت ما حدث، رأيت كل شيء أمامي بوضوح . . وأحسست بدافع أن أذهب لأواجهها . . وبنفسي . . فمن المستحيل أن تعترف كورين عبر الهاتف، وكنت غاضباً جداً لتفكيري كيف عرَّضتكِ للموت، وكيف قضت تلك الأمسية تتمتع في الفندق لمجرد إخافتك! وفوق كل هذا، اعترفت لي بكل شيء حين وجدتها في موروني . ولم تبدُ نادمة أبداً . حتى حين قلت لها إن ما فعلته يمكن أن يصنف كجريمة مدبرة .

ـ أوه . . لا! أظنها فقط كانت تنوي أن تخيفني .

ـ مع كل هذا، ما كانت قادرة على ضمان أمنك . ولا بد أنها مجنونة . . ولن أستقبلها ثانية هنا!

ابتلعت غوين ريقها تحاول أن لا تبالغ :

ـ أظن، أنها أحياناً، يمكن أن تكون غير مسؤولة .

صاح بلهجة غير متوقعة منه :

ـ بل غير متوازنة! ألهذا السبب قررت الزواج مني، يا عزيزتي؟

حاولت تجنب الرد المباشر، فتنهدت :

ـ مسكينة كورين . . لم يكن لديها فكرة أنني أعرف السيدة ايمز، ولا أنني أقمت في فندقها . . ولولا أننا ذهبنا إلى هناك اليوم . .

ـ غوين . . سألتكِ سؤالاً . .

ردت بعد تفكير :

ـ أجل . . كان هذا هو دافعي آنذاك!

ـ وبعد ذلك؟

بدأت نبضات قلبها تطرق فجأة بعنف، وأدارت له جانب وجهها الدقيق التكوين . . وأطلقت العنان للكلمات تخرج من عقالها على سجيتها لتعبّر عن واقع حالها وتعترف له عما اعترى قلبها :

ـ منذ ذلك الوقت ميشال، كنت أخوض معركة خاسرة . أحاول أن لا أواجه الواقع الذي يقول إنني أحبك . . ثم . . ليلة أمس . .

ضمها بصمت إليه، قلبه يضرب صدرها بقوة .

ـ قبل أن أقبلكِ مجدداً، ولأنني قد لا أتمكن من التوقف، هناك شيئان آخران . . يوم زفافنا، قالت اليغرا شيئاً عن الإرسال في طلبك . . ومع أن طريقة وصولك إلى هنا لم تعد مهمة، ولا كان في نيتي التفكير بها يوم زفافي . . لكن أكان ما قالته صحيحاً حبيبتي؟ أتركتني أعتقد أنك وصلتِ دون دعوة؟ أكي تحمي اليغرا التزمت الصمت؟

كان في نفس غوين تهور لذيذ، يجبرها على الاعتراف :

ـ أجل .

ربما لو أنه يحبها، فعليه أن يسمع الحقيقة .

ـ هددتني اليغرا بأن تأخذ فيليب إلى لندن إذا لم أحضر إلى هنا، ولسوء الحظ حين وصلت، كانت قد نسيت التاريخ، كانت رسالتها معي، لكنها أضاعت رسالتي . . ولهذا السبب جئت إلى هنا . . كان مالي ينفد، وأحسست بضرورة معرفة ما حدث . وطلبت مني أن لا أتصل بالهاتف . . كي لا . .

تلاشى صوتها، لا تريد أن تفضح أمر اليغرا أكثر .

ـ كي لا أكتشف أمرها . . أعتقد، أنني لو فكرت جيداً، لا يمكن أن ألومها . . وحين وصلتِ، لم أستطع التخلص منكِ بسرعة كافية .

ردت بصوت مؤنب :

ـ لكنك رميتني فعلاً إلى الخارج .

ضحكته كانت منخفضة :

ـ هذا ما قلتِه لي مرة سيدتي . . وأنا أعتذر ثانية . . لكن، ربما لا تفهمين كم كنت يائساً للخلاص منكِ . ما إن لمحتكِ حتى أحسست بمدى خطركِ على راحة بالي . ليس لأنني كنت مقتنعاً بأنكِ من تقولين إنكِ هي . . لكن كيف يمكن أن أرحب بك بعد احتجاجي الشديد أصلاً على وجود كريستين؟

ثم، حين رأيتكِ مرة ثانية، وعانقتك بين ذراعي، عرفت أنني لن أستطيع تركك ترحلين.

ـ لم تقل لي أبداً لماذا لم تحب كريستين ولا عائلتها.

في صوته كان حنان نافد الصبر:

ـ لم يكن الأمر شخصياً يا صغيرتي، ربما لا تعرفين أن روي كان مخطوباً لفتاة فرنسية حين هرب مع ابنة عمكِ. أتتصورين ما كنت مضطراً لتسويته وأنا لوحدي؟ بكاء الحزن، الخطيبة المهجورة، وضرورة مراضاة أبوين ثائرين، قد أكون بالغت بردة الفعل، لكن واقع أن أخي الذي اعتمد عليه كثيراً، لم يعد إلى هنا لمدة شهرين.. لم يساعدني كثيراً.. يا إلهي! كنت على استعداد لكراهيتكم جميعاً!

ـ لكن.. كريستين؟

تلاشت ابتسامته وتنهد:

ـ أوه.. اتفقنا معاً بشكل جيد حبيبتي.. لكنها لم تفعل شيئاً لتساعد روي على الاستقرار.. دائماً كانا يسافران إلى مكان ما، أو يفعلان شيئاً لا ضرورة له، مثل إعادة فرش الكوخ القديم قرب البحيرة، بطريقة قد لا تشجع أحداً على أن يدوس في داخله.. كنا نستخدمه كثيراً في يوم ما لمراقبة الحياة البرية فوق الماء.

ـ ولهذا أردت الاحتفاظ بفيليب هنا بعد وفاة أبويه؟ كي يكون له بيت ملائم.

ـ شيء من هذا عزيزتي. على أي حال، بعد عودتنا من شهر عسلنا، سيأتي جداه في زيارة طويلة. لذلك دعينا لا نقلق على المستقبل منذ الآن.. أليس كذلك؟

ـ شهر عسل؟

هل عاد صوته يمتلىء بتلك السخرية المثيرة للأعصاب، أم أنه يعني ما يقول؟ امتدت يدها فجأة لتمسك روبه الحريري الأسود، وجهها مشدود بحساسية فائقة مع ارتجاف غريب. وفهم التساؤل في صوتها:

ـ أيجب أن تسألي؟ كنت أحضّر كل شيء.. ووجدت أنني غير قادر على انتظار عودة اليغرا من أمبركا.. هناك فيلا صغيرة في جبال الألب السويسرية، وهي من أملاك العائلة، وأعرف أنها ستعجبك.

ـ أوه.. ميشال!

التوقع الذي برز أمامها بدا لها مدوّخاً بحيث أنها بالكاد تقبلته دون اللجوء إلى شيء من الشك.. ليس عن نفسها، فهي لا تشك مطلقاً في مشاعرها.. لكن ماذا عن مشاعره؟

ـ كيف يمكن أن تكون واثقاً.. أنني سأستقر هنا أفضل مما فعلت كريستين؟

ـ لأنني واثق حبيبتي.. من مجرد مراقبتك منذ وصولك. وأستطيع ضمان هذا.. لكن، إذا فعلتِ هذا أم لا، فهي مخاطرة يجب أن أركبها. إضافة إلى هذا، عزيزتي، أليس الوقت متأخراً للتفكير بهذا الآن؟

قالت، وشيطان صغير يدفعها:

ـ لكن...

بثبات وحزم قاطعها:

ـ دون المزيد من «ولكن»..

وتقدمت شفتاه نحوها يتمتم، والخشونة في صوته:

ـ ألا تعتقدين أننا تكلمنا بما يكفي الليلة؟ لم يعد أي شيء يهم بعد الآن، ما عدا هذا، يا طفلتي المتمردة، فهذا ما سيبقى بيننا إلى الأبد!

وضمها إليه بشدة.

كان في صوتها تكسر غير واع حين قالت:

ـ إلى الأبد.. حبيبي.

واستسلمت له تماماً وهو يضغط رأسه الأسود بحب على كتفها، ولم يعد في نفسها أي تفكير في منعه عن أي شيء.. فكلمة المنع ستمحى من

قلبها لتتطبع مكانها كلمة إلى الأبد، وإلى الأبد.. إضافة إلى هذا المكان..
هذا الرجل.. الذي معه ستبقى راضية قانعة.. وإلى الأبد.

* * *

فراشة المحبة

www.liilas.com